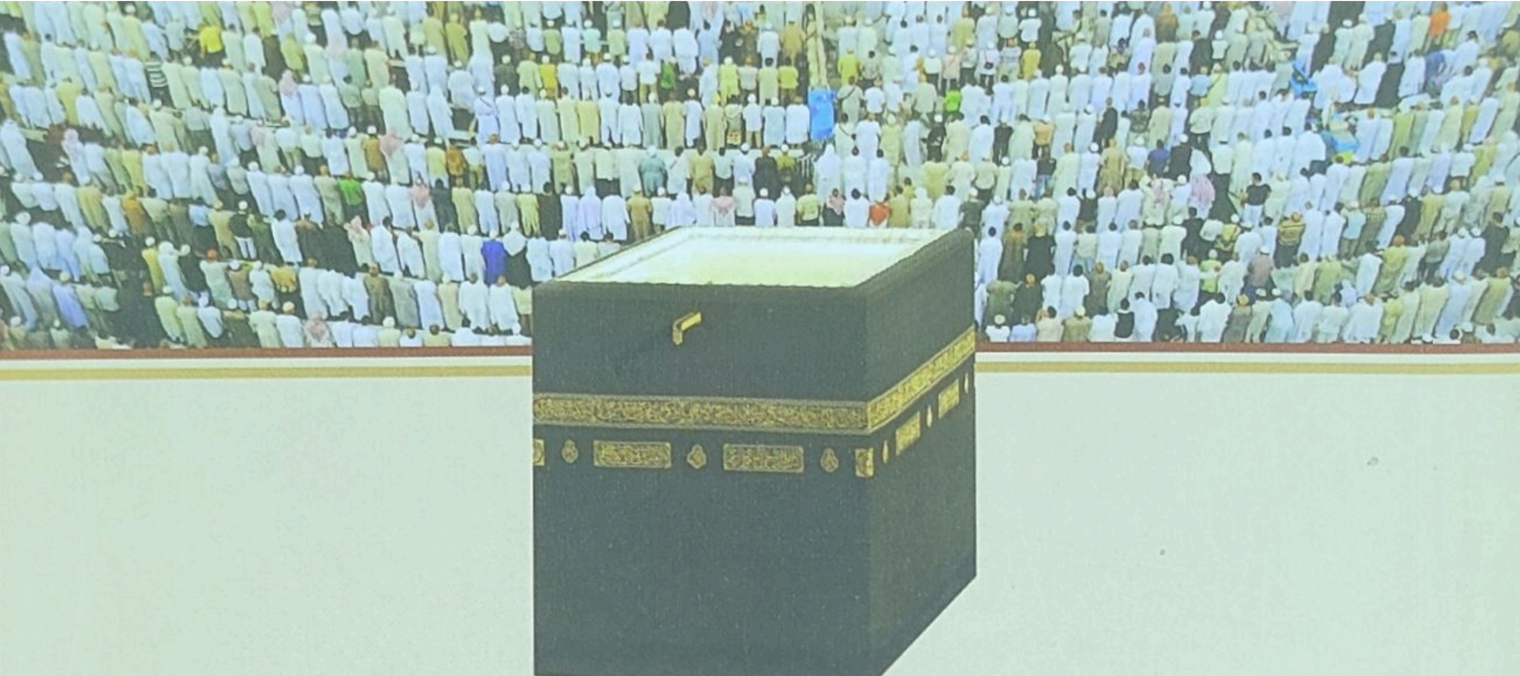
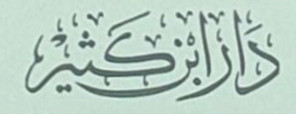
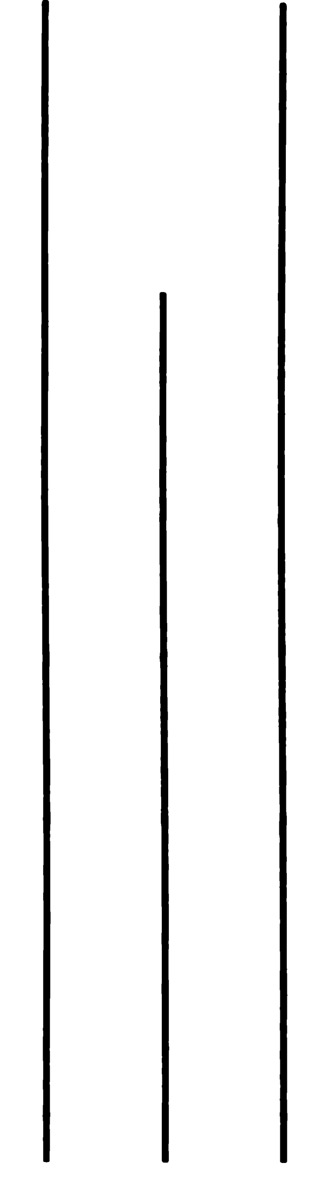


وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ

الحجّ في الإسلام: مقاصده وأسراره، وروحه وحقيقته
في ضوء الكتاب والسُّنة، وبحثٌ مقارنٌ للدِّيانات الأخرى

للعلّامة الإمام السيّد أبي الحسن علي الحسني النّدويّ





وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ

○ الموضوع: ثقافة إسلامية
العنوان: وأذن في الناس بالحج
تأليف: الشيخ أبي الحسن الندوي

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

ISBN 978-614-415-077-1

ISBN 978-614-415-077-1
9 786144 150771

○ الطباعة والتجليد: ملكي برنت

○ الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف

○ القياس: ١٤×٢٠ / عدد الصفحات: ٨٨ / الوزن: ١٥٠ غ



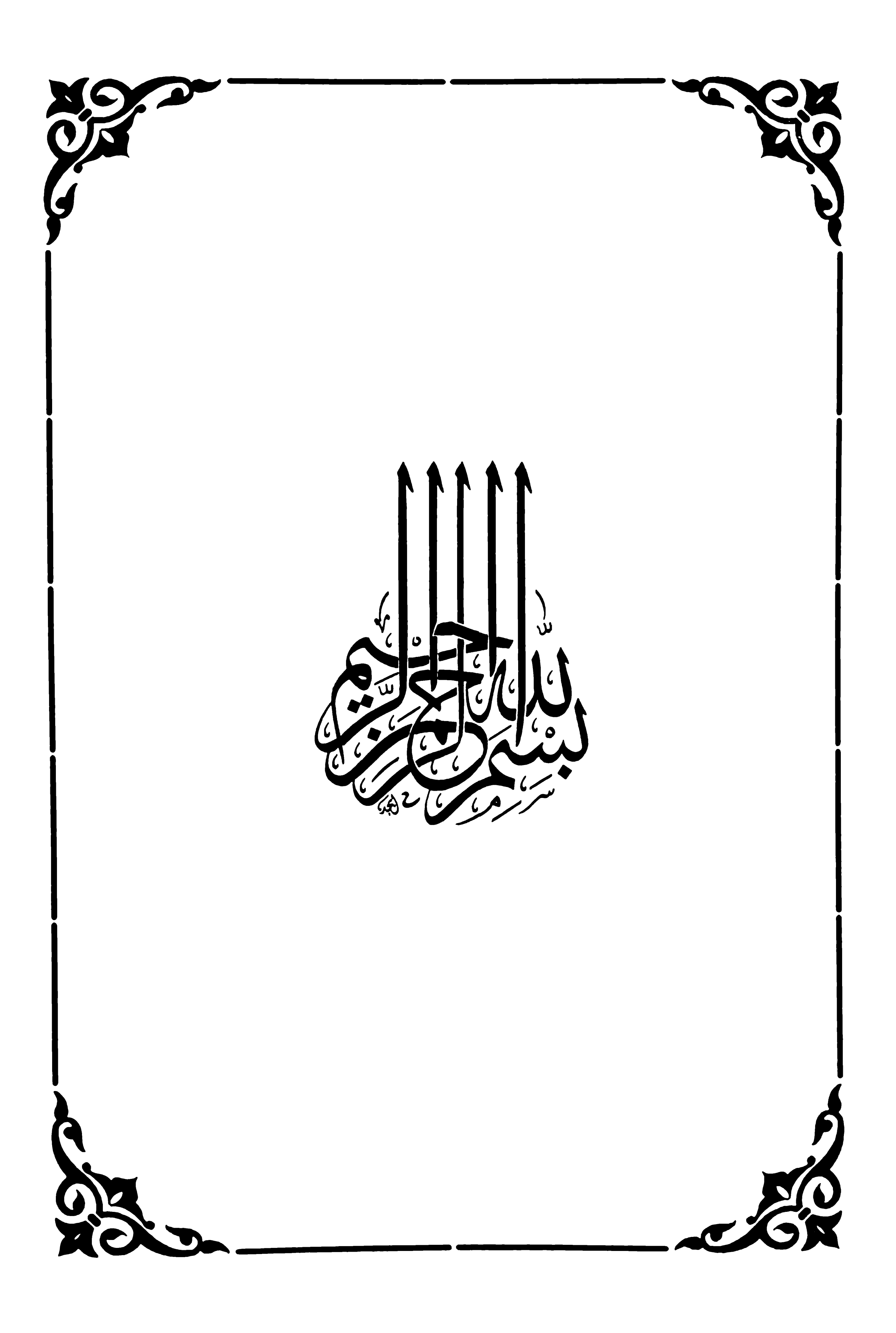
دمشق - سوريا - ص.ب : ٣١١
حلبوني . جادة ابن سينا . بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠
الإدارة تلفاكس: ٢٢٤٣٥٠٢ - ٢٢٥٨٥٤١
بيروت - لبنان - ص.ب : ١١٣/٦٣١٨
برج أبي حيدر . خلف دبوس الأصلي . بناء الحديقة - تلفاكس : ٨١٧٨٥٧ ٠١ - جوال : ٢٠٤٤٥٩ ٠٣
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ

الحج في الإسلام: مقاصده وأسراره، وروحه وحقيقته
في ضوء الكتاب والسنة، وبحث مقارن للديانات الأخرى

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي




بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد:

فقد صدر لي كتاب باسم «الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة ، وبمقارنة مع الديانات الأخرى» من دار الفتح في بيروت ، في عام ١٣٨٧هـ ، تحدثت فيه عن الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، عن مقاصدها وأسرارها ، كما قررها الكتاب والسنة ، وكما فهمها علماء المسلمين ، والراسخون في العلم والدين ، وعُنيت ببيان روحها وحقيقتها ، ورفع اللثام عن وجهها ، وإزالة ما طرأ عليها من تكلفات عجمية ، وأفكار دخيلة ، وتفسيرات خاضعة للعوامل السياسية أو الفلسفات الأجنبية ، مع مقارنة بأشكالها ونظمها ، وشرائعها وتقاليدها في الديانات الأخرى ـ اليهودية ، والمسيحية ، والبرهمية بصفة

خاصة ـ وقد لقي الكتاب ترحيباً وتقديراً في المشتغلين بالعلم والدين ، والحمد لله أولاً وآخراً.

وقد رأى بعض الإخوان أن أجرد من هذا الكتاب البحث الخاص بالحج ، لأنه فريضة تتطلب اهتماماً أكثر ، وعناية أشد وأقوى ، لبعد مركزه عن أكثر أجزاء العالم الإسلامي ، ووجوبه مرة في العمر ، فتشد إليه الرحال ، وتقطع فيه البراري والقفار ، وتُركب فيه الأجواء والبحار ، ويأتيه المسلمون من كل فج عميق ، ومرمى سحيق ، فيتطلب بطبيعة الحال فهماً عميقاً لمقاصده وأسراره ، وتشبعاً بروحه وحقيقته ، وكان إخضاعه للاتجاهات الجديدة ، والمعاني السياسية أكثر من كل ركن ، حتى أصبح في نظر كثير من المثقفين ، بل الكتّاب الإسلاميين مؤتمراً سياسياً عالمياً ، يعقد كل عام ، وليست له إلا هذه القيمة السياسية الاجتماعية ، فوافق المؤلف على رأي كثير من أصدقائه أن يجرّد هذا المقال من ذلك الكتاب ، وينشر كرسالة مفردة؛ لأنها تعرض الحج في إطاره الإسلامي الأصيل الواسع ، وتُثير معانيه العميقة ، ومقاصده البعيدة ، وروحه القوية ، الإبراهيمية الحنيفة ، وها نحن أولاء نقدم الطبعة الثانية لهذه الرسالة ـ وفيها زيادة وتنقيح ـ إلى الحجاج الكرام ، وزوّار بيت الله الحرام ، ليكونوا في أداء هذا الركن العظيم على بصيرة ، ومعرفة أصيلة

عميقة ، بمقاصده وحقيقته ، وروحه الذي شرع لأجلها ، والله الموفق والمعين.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

١٥ شعبان ١٣٩٤هـ
١ أيلول ١٩٧٤م
ندوة العلماء ـ لكهنؤ ـ الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٩].

الإسلام دين توحيد وتجريد لا وساطة فيه ولا تمثيل:

الإسلام دين توحيد خالص ، دين لا يؤمن بالوساطة بين العبد وربه[١] ، ولا بمشهود محسوس يركز عليه الإنسان تفكيره ، ويصرف إليه همته؛ ليتخيل به الإله الذي لا تدركه الأبصار ،

(١) إلا الرسل والأنبياء ، بمعنى أنهم واسطة بين الخالق والخلق في تبليغ الرسالة ، والتعريف بالله وصفاته ، وما يليق به ، وما لا يليق ، والإرشاد إلى الطريق المستقيم.

ويرتبط به في خياله ، ويتمسك بأذياله ، فلا وسائط ولا مظاهر ، ولا صور ولا أصنام ، ولا هياكل ولا طبقة كهَّان ولا سَدَنة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦] . ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٢-٣].

إذاً فالإسلام دين يطلب تجرُّداً في الخيال ، وسمواً في الفكر ، ونقاءً في الإرادة والنية ، وإخلاصاً في العمل والتطبيق ، وانقطاعاً عن الغير ، لا يتصور فوقه وأكثر منه ، ومستوى في الفكر والعقيدة؛ لم تبلغ الإنسانية ولا الأديان والفلسفات والنظم الدينية أو العقلية إلى مثله أو قريب منه ، وقد وصف الله نفسه بما لا مزيد عليه في الدقَّة والسمو ، فقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

حاجة الإنسان إلى «مشاهد» يوجه إليه أشواقه ، ويحقق رغبته من التعظيم والدنو:

ولكن الفطرة البشرية هي الفطرة البشرية ، فالإنسان مازال ـ ولا يزال ـ باحثاً عن شيء يراه بعينه ، فيوجِّه إليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحَّة في التعظيم والدنو.

شعائر الله وحكمتها:

وقد اختار الله أموراً ظاهرة محسوسة ، اختصت به ، ونسبت إليه ، وتجلَّت عليها رحمته ، وحفتها عنايته؛ بحيث إذا رئيت ذُكر الله ، وارتبط بها وقائع وحوادث وأفعال وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه ، ودينه وتوحيده ، وحسن بلاء أنبيائه ، وسماها «شعائر الله»[1] التي جعل تعظيمها تعظيمه ، والتفريط في جنبها تفريطاً في جنبه ، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن في نفوسهم ، ورغبتهم الفطرية في الدنو والمشاهدة ، بل حثَّ على ذلك ، ودعا إليه فقال: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢] . وقال: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠].

عنصر الهيام والحنان في طبيعة الإنسان، أثرهما في الحياة ومنزلتهما من الدين:

ثم إن الإنسان ليس عقلاً مجرداً ، ولا كائناً جامداً يخضع لقانون ، أو إرادة قاسرة ، ولا جهازاً حديدياً يتحرك ويسير تحت قانون معلوم ، أو على خط مرسوم ، إن الإنسان عقل وقلب ، وإيمان وعاطفة ، وطاعة وخضوع ، وهيام وولع ، وحب

---

(١) اقرأ البحث اللطيف في ذلك في (حجة الله البالغة) لحكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ج١ ، ص ٥٥).

وحنان ، وفي ذلك سرُّ عظمته وشرفه وكرامته ، وفي ذلك سرُّ قوته وعبقريته وإبداعه ، وسر تفانيه وتضحيته ، وبذلك استطاع أن يتغلب على كل معضلة ومشكلة ، وأن يصنع العجائب والخوارق ، واستحق أن يحمل أمانة الله التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، ووصل إلى ما لم يصل إليه مَلَك مقرّب ، ولا حيوان ، ولا نبات ، ولا جماد.

إن صلة هذا الإنسان بربه ليست صلة قانونية عقلية فحسب ، يقوم بواجباته ، ويدفع ضرائبه ، ويخضع أمامه ، ويطيع أوامره وأحكامه ، إنما هي صلة حب وعاطفة كذلك ، صلة لا بد أن يرافقها ويقترن بها ويتحكم فيها حنان وشوق ، وهيام ولوعة ، وتفان وتهالك ، والدين لا يمنع من ذلك ، بل يدعو إليه ، ويغذيه ويقويه ، فتارة يقول القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وتارة يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ويذكر أنبياءه ورسله ، وينوِّه بحبهم وحنانهم ، ويحدث عن أشواقهم وتفانيهم في هذا الحب ، فيقول عن يحيي ـ عليه السلام ـ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ

تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٢ـ ١٣] ويحكي قصة خليله إبراهيم كيف آثر حب الله وطاعته على حب ولده، وفلذة كبده، وكيف وضع السكين على حلقومه، وحاول ذبحه حتى شهد ربُّه بصدقه، وحسن بلائه، وقال: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٤ـ ١٠٦] ولذلك قال في وصف إبراهيم: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[هود: ٧٥].

«الصفات» هي التي تثير الحب، وتبعث الحنان؛ لذلك أطال وأكثر من ذكرها القرآن:

وذلك سر إطالة القرآن في ذكر صفات الله، وأفعاله، وآلائه، ونعمائه، وإشادته بها، والعودة إليها مرة بعد مرة، فإن الصفات هي التي تثير الحب، وتبعث الحنان، وتوجد الأشواق، وذلك سر تفصيل القرآن الذي يعبر عنه بعض علماء الكلام وأئمة الإسلام «بالنفي المجمل والإثبات المفصل»[1] فإن الإثبات هو الذي ينبع منه الحب، ويفيض منه الحنان، وتنبعث به الأشواق، وتتغذى به العاطفة، فإذا كان النفي رائد العقل، كان الإثبات رائد القلب.

ولولا هذه الصفات العليا وأسماء الله الحسنى؛ التي نطق بها القرآن، ووردت بها السنة، وهام بها الهائمون، وتغنى بها العارفون، وسبَّح بها المسبِّحون، وسبح في بحارها ونزل في

(١) التعبير لشيخ الإسلام ابن تيمية.

أعماقها الغواصون ، لكان هذا الدين خشبياً جامداً ، لا يملك على أتباعه قلباً ، ولا يثير فيهم عاطفة ، ولا يبعث فيهم حماسة ، ولا يحدث في القلب رقة ، ولا في الصلاة خشوعاً ، ولا في العين دموعاً ، ولا في الدعاء ابتهالاً ، ولا في الجهاد تفانياً ، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة ميتة لا حياة فيها ولا روح ، ولا مرونة ولا سعة ، وكانت الحياة كلها حياة رتيبة خشبية ، لا عاطفة فيها ولا أشواق ، ولا حنان فيها ولا هيام ، إذاً: أي فرق بين الحياة والموت ، وبين الإنسان والجماد؟!.

ما قيمة كأس لا تطفح ولا تفيض؟:

لقد كان المسلم في حاجة إلى غذاء للقلب ، وإلى زاد للعاطفة ، وإلى أن يقضي شوقه ، ويروي غلته ، مرة بعد مرة ، وعلى فترة بعد فترة ، وكان في حاجة إلى أن تطفح كأسه ، فما قيمة كأس تمتلئ ولا تطفح؟ وكان في حاجة إلى أن تفيض هذه الكأس ، فما قيمة كأس تطفح ولا تفيض؟!.

تسلية البيت والحج لحنان المسلم وهيمانه:

وقد تفطَّن حجة الإسلام «الغزالي» بذكائه النادر ، وفقهه الدقيق لأسرار التشريع لهذه النكتة ، وعرف أن الشوق غريزة في الإنسان الحي السليم ، وحاجة من حاجاته ، فيبحث له عما يقضي به حاجته ، ويروي غلته ، وكان البيت العتيق وما حوله من شعائر

الله ، والحج وما فيه من مناسك ، خير ما يحقق رغبته ، ويسلي حنانه وعاطفته ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٦ـ٢٩] .

يقول الغزالي :

(فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة ، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف إلى الله عز وجل ، فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة ، فضلاً عن الطلب لنيل ما وُعد عليه من الثواب الجزيل)(١) .

ويردفه شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، فيشير إلى نفس النكتة ، ويجعلها حكمة الحج الأساسية ، فيقول :

(وربما يشتاق الإنسان إلى ربه أشد شوق ، فيحتاج إلى شيء

---

(١) إحياء علوم الدين (ج١ ـ ص ٢٤) .

يقضي به شوقه فلا يجد إلا الحج)[1].

لقد كان للمسلم أن يقضي هذا الشوق ، وأن يبرز هذا الحنان ، وأن تفيض كأسه في الصلوات التي يصلّيها كل يوم ، فيسلّي بها قلبه ، ويطفئ بها غلته ، ويهدئ بها ثائرته ، ويخفف بها حرارة شوقه ، ووهج نفسه ، ولكنها قطرات محدودة تتكون خشوعاً ، أو تسقط دموعاً ، إنها قطرات قد لا تفي بما يجيش في الصدر من حنان وولوع ، وهي قطرات قليلة في بعض الأحيان لا تسمن ولا تغني من جوع.

طفرة أو قفزة واسعة من سجن ضيق إلى عالم فسيح:

وكان للمسلم أن يروي ظمأ روحه ، ويقضي حاجة حنانه ، ويكسر سورة نفسه ، ويثور على «وثنية» عاداته ومألوفه ، وأن يغذي روحه بتخلية معدته في شهر رمضان ، ولكنها ساعات محدودات كذلك ، محفوفة بما يخفف أثرها ، ويضعف سلطانها ، من أكلة متخمة ، وريّ مسرف ، وراحة منعمة ، ومجتمع ثائر ، ومدنية قد أحاطت بالصائم ، كما تحيط البحار المتلاطمة بجزيرة صغيرة ، فكان المسلم ـ بكل ذلك ـ في حاجة إلى طفرة ، أو قفزة واسعة يفك بها أغلاله وسلاسله ، وينسلخ بها من سجنه الضيق القديم ، العتيق الخالق ، وينتقل من عالم كله

---

(١) حجة الله البالغة (ج١ ـ ص ٥٩).

قديم مألوف ، ومقيد محدود ، ومخطوط مرسوم ، ومصنوع معمول إلى عالم كله جديد وطريف ، وحر منطلق ، وثائر مارد ، كله حب وغرام ، وشوق وهيام ، قد تحرر من كل رق ، وثار على كل وثن ، وكفر باختلاف الجنس واللون والوطن ، وآمن بوحدة الإلهية ، وبوحدة المنعم والوهاب ، وبوحدة الإنسانية ، وبوحدة العقيدة ، وبوحدة المطلوب ، وهتف الناس جميعاً بصوت واحد: «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك».

لقد كان المسلم في حاجة ـ بعد هذه الصلوات التي يصليها كل يوم ، وبعد شهر رمضان الذي يصومه كل عام ، وبعد الزكاة التي يقوم بها إذا تم النصاب ، وحال الحول؛ إلى أن يشهد موسماً هو ربيع الحب والحنان ، وملتقى المحبين والمخلصين ، ومشهد العشاق والهائمين.

تحد لعبّاد العقل والمادة ، ودعوة إلى الإيمان بالغيب ، واتباع الأمر المجرد:

وكان المسلم في حاجة إلى أن يثور على عقله الرزين الوقور ، المقلّد المطبّق ، وما لذة حياة لا ثورة فيها ولا تمرد؟ . وكان في حاجة إلى أن يتخطى الدائرة المرسومة من عادات ومألوفات ، وقوانين وضعية ، وحضارة مصطنعة ، ومجتمع قاس ، ويفك قيوده وأغلاله ، وينتزع الزمام من يد عقله الذي استبد به زماناً

طويلاً ، ويعطيه لقلبه وعاطفته ، فيتحكمان فيه ما شاءا ، ويهيم على وجهه كما هام الهائمون ، ويذهب في الحب كل مذهب كما فعل العشاق المتيَّمون ، فلا حرية لمن ملكه المجتمع ، وسيطرت عليه الحضارة ، وتسلطت عليه آلهة التقاليد ، ولا توحيد لمن أسرته العادات ، والمألوفات ، والشهوات ، ولا يعتبر مطيعاً منقاداً ، مسلماً مستسلماً ، من اعتمد دائماً على عقله لا ينشط لعمل ، ولا يسرع لامتثال أمر حتى يزنه في ميزان عقله المخلوق ، ويعرف فوائده المادية المحسوسة ، والحج بوضعه الدقيق الغامض المنافي للمألوف المعروف لعبَّاد العقل والمادة ، وأسارى النظم والترتيبات ، دعوة إلى الإيمان بالغيب ، واتباع الأمر المجرد ، وعزل العقل عن وظيفته لمدة محدودة ، وفي مكان محدود ، وصرفه عن طلب الدليل والحكمة ، والمنطق والفلسفة في كل حين وأوان ، وفي كل زمان ومكان.

وقد أبدع حجة الإسلام الغزالي كل الإبداع في بيان روح الحج وحقيقته ـ وهي الإيمان بالغيب ، والامتثال المطلق ـ وصوَّر بقلمه البليغ ، وريشته البارعة ، صورة الحج الرائعة ، وبلغ إلى لب الدين وجوهره ، وروح الإسلام وحقيقته في شرح هذا الركن العظيم ، وقد غفل عن ذلك أكثر العلماء والكتَّاب في القديم والحديث ، يقول رحمه الله :

(ووضعه (أي البيت) على مثال حضرة الملوك ، يقصده

الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق ، شعثاً غبراً ، متواضعين لرب البيت ، ومستكينين له خضوعاً لجلاله ، واستكانة لعزته ، مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت ، أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم ، وأتمّ في إذعانهم وانقيادهم .

ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ، ولا تهتدي إلى معانيها العقول ، كرمي الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار ، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فإن الزكاة أرفاق ، ووجهه مفهوم ، وللعقل إليه ميل ، والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله ، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل ، والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عزّ وجل بأفعال ، هي هيئة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل ، فأما ترددات السعي ، ورمي الجمار ، وأمثال هذه الأعمال ، فلا حظ للنفوس ، ولا أنس للطبع فيها ، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها ، فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد ، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط .

وفيه عزل للعقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه ، فإن كل ما أدرك العقل معناه ، مال الطبع إليه ميلاً ما ، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر ، وباعثاً معه على الفعل ، فلا يكاد

يظهر به كمال الرق والانقياد ، ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص : «لبيك بحجة حقاً ، تعبداً ورقاً» ، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها .

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ، ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على سنن الانقياد ، وعلى مقتضى الاستعباد ، كان ما لا يهتدي إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس ، وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق إلى مقتضى الاسترقاق ، وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجّب النفوس من هذه الأفعال العجيبة ، مصدره الذهول عن أسرار التعبدات ، وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى)[١] .

ويقول في الرمي ، ويذكر أن العمدة فيه الانقياد ، والأمر المجرد :

(فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه ، ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس ـ لعنه الله تعالى ـ في ذلك الموضع ، ليُدخل على حجّه شبهة ، أو يفتنه بمعصية ، فأمر الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له ، وقطعاً لأمله ، فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده ، فلذلك

---

(١) إحياء علوم الدين (ج١ ـ ص ٢٤٠) .

رماه ، وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان ، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان ، وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي فيه برغم أنف الشيطان.

واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة ، وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره ، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى ، تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه)[1].

ويقول في الذبح:

(فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال ، فأكمل الهدي ، وارجُ أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار ، فهكذا ورد الوعد ، فكلما كان الهدي أكبر ، وأجزاؤه أوفر ، كان فداؤك من النار أعم)[2].

الحاج طوع إشارة ورهين أمر:

والحج بمناسكه وأركانه وأعماله ، كله تمرين ، وتمثيل للإطاعة المطلقة ، وامتثال للأمر المجرد ، وسعي وراء الأمر ، وتلبية وإجابة للطلب ، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى ، وعرفات والمزدلفة ، ثم منى ومكة: يقيم ويرحل ، ويمكث وينتقل ،

---

(١) إحياء علوم الدين (ج١ ـ ص ٢٤٣).
(٢) إحياء علوم الدين (ج١ ـ ص ٢٤٣).

ويخيِّم ويقلع ، إنما هو طوع إشارة ، ورهين أمر ، ليست له إرادة ولا حكم ، وليس له اختيار ولا حرية ، ينزل بمنى ، فلا يلبث أن يؤمر بالانتقال إلى عرفات من غير أن يقف بالمزدلفة ، ويقف بعرفات ويظل سحابة النهار مشتغلاً بالدعاء والعبادة ، وتحدثه نفسه بالمكث بعد الغروب ليستجم ويستريح ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالانتقال إلى المزدلفة ، ويقضي حياته محافظاً على الصلوات في وقتها ، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفة لأنه عبد لربه ، ليس عبداً لصلاته وعاداته ، فلا يصليها إلا بالمزدلفة جمعاً مع العشاء ، وتطيب له الإقامة في المزدلفة ، فيريد أن يطيلها ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالانتقال إلى منى.

وهكذا كانت حياة إبراهيم وحياة الأنبياء ، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين والمتيَّمين ، نزول وارتحال ، ومكث وانتقال ، وعقد وحل ، ونقض وإبرام ، ووصل وهجر ، ولا خضوع لعادة ، ولا إجابة لشهوة ، ولا اندفاع للهوى.

فضل المكان والزمان وموسم الحب والحنان:

وكان ينبغي أن يكون ذلك في مكان قد قام فيه أكبر المحبين ، وإمام المخلصين ، وأشد الناس حباً لله ، وأحبهم إلى الله في عصره ، وأسرته الصغيرة الطيبة المباركة ، بأكبر دور في الحب والولاء ، والإخلاص والوفاء ، والإيثار والفداء ، وقاموا بأروع رواية وأجملها في تاريخ الحب السامي ، والولاء الطاهر ،

والإخلاص المعجز ، وجاء من بعدهم الأنبياء والمرسلون ، والموحِّدون المخلصون ، والمحبون المتفانون في كل عصر ، فنسكوا مناسكهم ، وشهدوا مشاهدهم ، واحتذوا حذوهم ، وترسَّموا خطاهم ، وحكوا هذه الرواية وأعادوها ، فطافوا حول البيت ، وسعوا بين الصفا والمروة ، ووقفوا بعرفات ، وباتوا في المزدلفة ، ورموا الجمرات ، ونسكوا في منى .

وكان في المكان والزمان ، وفصول الرواية التي يعيدونها والأعمال التي يقلدونها ، ونسائم الحب التي ينشقونها ، والجو الفائض بالإيمان والحنان الذي يعيشون فيه ، وطبقات الأمة التي يتصلون بها ويعاشرونها ، وفي هذا الالتقاء الديني الروحي الذي لا نظير له على وجه الأرض ، وفي هذا الضجيج من الدعاء والذكر والتلبية والاستغفار ، ما يعيد الحياة إلى القلوب الميتة ، ويحرك الهمم الفاترة ، وينبه النفوس الخامدة ، ويشعل شرارة الحب والطموح التي انطفأت ، أو كادت تنطفئ ، ويجلب رحمة الله .

وقد أشار العلماء العارفون إلى ما في اجتماع المسلمين العظيم ، واجتماع هممهم ودعواتهم وقلوبهم الصادقة من تحريك لرحمة الله تعالى ، ومن تحريك للقلوب القاسية ، وإثارة للأشواق .

يقول حجة الإسلام الغزالي :

(فإذا اجتمعت هممهم ، وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم ، وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم ، وامتدت إليه أعناقهم ، وشخصت نحو السماء أبصارهم ، مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة ، فلا تظن أنه يخيب أملهم ، ويضيع سعيهم ، ويدخر عنهم رحمة تغمرهم)[١] .

ويقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

(اعلم أن حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان ، يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصدّيقين ، والشهداء والصالحين ، ومكان فيه آيات بينات ، قد قصده جماعات من أئمة الدين ، معظِّمين لشعائر الله ، متضرعين راغبين وراجين من الله الخير ، وتكفير الخطايا ، فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة ، وهو قوله ﷺ : «ما رُئي الشيطان يوماً ، هو فيه أصغر ولا أدحر ، ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة . . . (الحديث)»[٢] .

وقال : (ومن باب الطهارة النفسانية الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظِّمونه ، ويحلّون فيه ، ويعمرونه بذكر الله ، فإن ذلك يجلب تعلق همم الملائكة السفلية ، ويعطف عليه دعوة

---

(١) إحياء علوم الدين (ج١ ـ ص ٢٤٣) .

(٢) حجة الله البالغة (ج١ ص ٥٩) .

الملأ الأعلى الكلية لأهل الخير ، فإذا حلّ به غلب ألوانهم على نفسه)[1].

تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية «إبراهيم» من أعظم مقاصد الحج:

ومن مقاصد الحج الرئيسية: تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية ، ومؤسسها إبراهيم الخليل ، والتشبع بروحه ، والمحافظة على إرثه ، والمقارنة بين حياتنا وحياته ، وعرضها عليها ، واستعراض ما يعيش فيه المسلمون في العالم ، وتصحيح ما وقع في حياتهم من أخطاء أو فساد أو تحريف ، وإعادة ذلك كله إلى أصله ومنبعه ، فالحج عرضة سنوية للعلة ، تضبط أعمال المسلمين وحياتهم ، ويتخاصون بها من نفوذ الأمم والمجتمعات التي يعيشون فيها.

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي:

(ومن مقاصد الحج: موافقة ما توارث الناس عن سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فإنهما إماما الملة الحنيفية، ومشرعاها للعرب ، والنبي ﷺ بعث لتظهر به الملة الحنيفية ، وتعلو به كلمتها ، وهو قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

---

(١) حجة الله البالغة (ج١ ص ٥٩).

فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إمامها كخصال الفطرة[1] ، ومناسك الحج ، وهو قوله ﷺ: «قفوا على مشاعركم ، فإنكم على إرث من إرث أبيكم»)[2] .

إعادة قصة إبراهيم وتمثيلها في الحج:

فمن أوضح ملامح الحج ، والروح المسيطرة على جميع أعماله ومناسكه: هو الحب والهيام والتفاني ، وإعطاء زمام الجسم والفكر للقلب والعاطفة ، وتقليد العشاق والمحبين ، وإمامهم وزعيمهم إبراهيم الخليل ، فحيناً طواف الحب والهيام حول البيت الحرام ، وحيناً تقبيل الحجر الأسود والاستلام ، وحيناً سعي بين غايتين ، وتقليد ومحاكاة للأم الحنون ، حتى في تؤدتها ووقارها ، وفي جريها وهرولتها ، ثم قصد (لمنى) في يوم معين هو يوم التروية ، ثم قصد إلى (عرفات) ووقوف بساحتها وعرصاتها ، ودعاء وابتهال ، ثم بيتوتة في المزدلفة ، وعودة إلى (منى) وحلق ونحر ، اقتداء بسنة إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) قال النبي ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، والاستنشاق بالماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء ، يعني: الاستنجاء ، قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة» (في السنن).

(٢) حجة الله البالغة (ج٢ ص ٤٢).

وأوضح ملامح هذا الحب والتقليد رمي الجمرات؛ الذي ليس إلا تمثيلاً لما صدر عن الخليل، وفي تقليد أعمال المحبين تأثير غريب في انتقال عدوى الحب، واتصال بالمركز الكهربائي الذي يجري منه التيار، ووسيلة إلى جلب رحمة الله، وشمول عنايته، وليس لمن ذاق حلاوة الحب منظر ألذّ من هذا المنظر الذي يجتمع فيه المحبون الطائعون لتمثيل هذه القصة التي حدثت قبل آلاف من السنين، ولكن الله أفاض عليها الخلود، وطلب من جميع المحبين المخلصين إعادتها وتمثيلها، إخزاء للشيطان، وتقوية للإيمان، واقتداء بخليل الرحمن.

قصة إبراهيم في القرآن وصلتها بالبلد الأمين:

ولد إبراهيم في بيت سادن من أعظم سدَنَة البلد، ينحت الأصنام ويبيعها، ويقوم على الهيكل الكبير، ويتصل به عن طريق العقيدة، وعن طريق الحرفة. وما أعظم المشكلة، وما أعقد العقدة إذا التقت العقيدة بالحرفة، واجتمعت العاطفة الدينية مع المصلحة المالية، ولا شيء في هذا الجو القاتم يثير الإيمان والحنان، ويبعث على الثورة على هذه الخرافة الوثنية، ولكنه قلب سليم هُيِّئ للنبوة، وأعد لتكوين العالم الجديد، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١] إنه يبدأ ثورته بمرحلة ربما لا تصل إليها، ولا تتناولها أعظم ثورة، إنها مرحلة الحياة المنزلية، ومرحلة البيت الذي ولد فيه

الإنسان وفرض عليه أن يعيش فيه. ويقع كل ما يحكيه القرآن في أسلوبه المعجز المبين من تحطيم إبراهيم للأصنام، وغضب عبَّادها وحيرتهم وعيِّهم، وانتقامهم من الفتى الثائر، واشتعال النار، وتحولها برداً وسلاماً على إبراهيم، ومناظرته البليغة أمام الملك الجبار)[1].

وتنتهي هذه الثورة إلى أن يضيق عليه البلد، ويغضب عليه المجتمع، وتطارده الحكومة، فلا يحفل بكل ذلك، ولا يحسب له حساباً، كأنه شيء كان منه على ميعاد، وكأنه نتيجة طبيعية قد توقعها، فيخرج من بلده قرير العين، رضي النفس، إذ نجا برأس ماله وهو الإيمان، فيهيم في أرض الله، وهو فريد لا يعرف له ثانياً، والبلاد كلها نسخة واحدة من الوثنية والخرافة، وعبادة الأوثان والشهوات حتى يهبط مصر، فيكون هدف الامتحان والامتهان، وينجو بصاحبته التي يطمع فيها الملك، فيفلتان من يده، ويأويان إلى أرض الشام، فيغرس فيها الغرس الكريم، ويلقي فيها عصا التسيار، ويقوم فيها بدعوته إلى رفض الأوثان، وإلى عبادة الله وحده.

وتطيب له الإقامة في الشام حيث يتوفر الخصب، ويتسع الرزق، ويتجلى جمال الطبيعة، فلا يلبث أن يؤمر بالتوجه إلى

---

(١) اقرأ الآيات (٥١ ـ ٧٠) من سورة الأنبياء.

أرض لا تقابل أرض الشام في الخصب والماء ، وإبراهيم لا يعرف لنفسه حقاً ، ولا يرتبط بأرض أو وطن ، إنما هو طوع إشارة ، ورهن أمر ، يعتبر العالم بلده ، والسلالة البشرية أسرته ، يؤمر بأن ينتقل مع زوجته (هاجر) ومولودها الصغير الرضيع .

وهنا في واد ضيق ، أحاطت به الجبال الجرداء من كل جانب ، وقسا فيه الجو ، وفقد الماء ، وغاب الأنيس ، وأوحش المكان ، يؤمر بترك زوجته المرأة الضعيفة العاجزة والمولود الصغير توكلاً على الله ، وامتثالاً لأمره ، واستسلاماً لقضائه ، فلا جزع ولا فزع ، ولا إشفاق ولا حذر ، ولا سآمة ولا ضجر ، ولا خَوَر في العزيمة ولا ريبة في الوعد ، تمرد على التجارب ، ومعاكسة للطبيعة ، وانقطاع عن الأسباب ، وإيمان بالغيب ، وثقة بالله حين تسوء الظنون ، وتزلّ الأقدام .

ويعرض المحذور والأمر الواقع ، فيغلب على الطفل العطش ، ويشتد بالأم الظمأ ، ولا مطمع هناك في ثماد[1] تروي غلتهما ، وهنا تجيش في المرأة عاطفة الأمومة والحنان ، والإشفاق على المولود الصغير ، فتخرج باحثة عن الماء ، أو عن سيارة تحمل الماء ، وتعدو مضطربة والهة بين جبلين ، يغلب

---

(١) الثمد: الماء القليل يتجمع في الشتاء ، وينضب في الصيف أو الحفرة ، يجتمع فيها ماء المطر ، جمعه: ثماد.

عليها الحنين والإشفاق على الولد ، فترجع لتطمئن إلى وجوده وحياته ، يغلب عليها الخوف على الحياة فتعدو مسرعة تبحث عن ماء ، أو عن أثر إنسان ، وهي بين اضطراب توحيه الطبيعة ، وسكينة يوحيها الإيمان والثقة ، وتعرف ـ وهي زوج نبيّ وأم نبيّ ـ أن البحث عن الأسباب لا ينافي الإيمان والثقة بالله ، فهي مضطربة في غير يأس ، ومؤمنة في غير تعطل وتواكل ، منظر لم تشهد السماء مثله ، وجاشت الرحمة الإلٰهية ، وتفجَّر الماء بطريق معجز ، فكان ماء خالداً مباركاً لا ينضب ولا يغيض ، قد وسع الخلق ، ووسع الأجيال ، وكان ماء لكل عصر ولكل أمة ، فيه غذاء وشفاء ، وفيه بركة وأجر.

وخلَّد الله هذه الحركة الاضطرارية التي ظهرت من امرأة مؤمنة مخلصة ، فجعلها حركة اختيارية ، يكلف بها أعظم العقلاء ، وأعظم الفلاسفة والنبغاء ، وأعظم الملوك والعظماء في كل عصر ، وفي كل جيل ، فلا يتم نسكهم إلا بالسعي بين هذين الجبلين اللذين هما ميقات كل محب ، وغاية كل مطيع ، والسعي خير ممثل لموقف المسلم في هذا العالم ، فهو يجمع بين العقل والعاطفة ، وبين الحس والعقيدة ، إنه يستعين بالعقل ويستخدمه في مصالح حياته ، ولكنه ينقاد أحياناً للعاطفة ، التي هي أعمق من العقل ، إنه يعيش في عالم قد حُفَّ بالشهوات ، ومُلئ بالزخارف والمظاهر ، لكنه يمر بينها كالساعي بين الصفا

والمروة ، لا يعرِّج على شيء ولا يتقيد بشيء ، إنما غايته وهمه ما يستقبله ، يعتبر حياته أشواطاً محدودة ، يقطعها إطاعة لربه واقتداء بسلفه ، لا يمنعه إيمانه عن البحث والسعي ، ولا يمنعه سعيه عن التوكل على الله والثقة به ، حركة قيمتها وروحها ورسالتها «الحب» و«الانقياد» .

ويكبر الولد ، ويبلغ السن التي تقوى فيها عاطفة الأبوة ، فيرافق والده ويسعى معه ، ويشعر الوالد العظيم الذي قويت فيه العاطفة الإنسانية ، وطبع على الحب والحنان بميل شديد إلى ولده وفلذة كبده ، وهنا المشكلة ، فإن قلبه هو القلب السليم الذي خص بالمحبة الإلٰهية ، إنه ليس كقلب كل إنسان ، إنه قلب «خليل الرحمن» والمحبة لا تعرف شريكاً ، ولا تحتمل عديلاً ، فكيف وهي المحبة الإلهية ، وهنا يتلقى إبراهيم إشارة بذبح الولد الحبيب ، ورؤيا الأنبياء وحي ، وتتكرر الإشارة ، فعرف أنه أمر يراد ، وأنه جد ، فيختبر ولده؛ لأنه شيء لا يتم إلا بموافقته وجلادته ، فيجد عنده غاية البر ، وغاية النجابة ، وغاية التضحية والتسليم للأمر الإلٰهي ، وهو نبي ، ابن نبي ، وجد نبي : ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

وهنا يقع ما لا يصدقه العقل ، فيخرج الوالد مع ولده النجيب الحبيب ، ذلك ليذبح ولده ، وهذا يطيع ربه ووالده ، وكلاهما

مطيع للرب ، مستسلم لأمره ، وعرض لهما الشيطان ـ ذلك الذي تكفل بالضلال ، ومنع الإنسان من السعادة ـ فحاول صرفهما عن التنفيذ ، وزين لهما العصيان ، ورغبهما في الحياة ، فاستعصيا عليه ، وأبيا إلا أن ينفذا أمر الله ، وهنا يقع ما تضطرب له الملائكة ، ويفزع له الإنس والجن ، فينتصب الولد للذبح ، ويضع الوالد السكين على حلقومه يحاول جهده الذبح ، ووقع ما أراده الله ، فلم يكن المقصود ذبح إسماعيل ، إنما كان المقصود ذبح الحب الذي ينازع الحب الإلٰهي ويقاسمه ، وقد ذبح بوضع السكين على الحلقوم ، إنما ولد إسماعيل ليعيش ويزدهر وينَسِل ، ويولد في ذرِّيته آخر الأنبياء وسيدهم ، فكيف يذبح وكيف يموت ، قبل أن يتحقق ما أراده الله؟ .

وفدى الله إسماعيل بكبش من الجنة يذبح مكانه ، وجعلها سنَّة باقية في عقبه وأتباعه ، يذبحون أيام النحر ، ويجدِّدون ذكرى هذا الذبح العظيم ، ويضحون في سبيل الله ما يشترونه بحرِّ أموالهم .

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات : ١٠٣ـ ١٠٩] .

وخلَّد الله تمثيل قصة الشيطان مع إبراهيم ، وجعل رجمه

بالحصى في الأمكنة التي اعترض فيها لإبراهيم ينهاه ويصرفه ، عملاً يتكرر كل عام ، وقصة تمثل في أفضل الأيام إثارة لبغض الشيطان ، وإظهاراً للتمرد عليه والعصيان ، وهي حركة يشعر فيها المؤمن بلذة وحياة وعاطفة إذا صح فيها الإيمان ، واستقام فيه الفهم ، وكمل الانقياد للأوامر ، ويعرف أنه في صراع دائم مع قوى الشر ، ومعركة مع إبليس وجنوده ، وأنه ليس له نصيب منه إلا الرجم والهوان.

ويدور الزمان دورته ، وإسماعيل الصغير شاب قوي ، أكرمه الله بالنبوة والسيادة ، وقد أثمرت دعوة إبراهيم وتوسعت وانتشرت ، وكان لا بد لها من مركز تأوي إليه وتعتمد عليه ، وكثرت القصور للملوك والمعابد للطاغوت ، يطاع فيها الهوى ، ويعبد فيها الشيطان ، وليس لله على أرضه مسجد يخلص لعبادته ، ويطهر لقاصديه وعابديه ، فيؤمر إبراهيم بعدما قام الدين على قدمه وساقه ، وظهرت نواة الأمة المسلمة الحنيفة لبناء بيت الله تعالى يكون مثابة للناس وأمناً ، ومعبد لله وحده ، فيتعاون الوالد والولد في بناء هذا البيت البسيط المتواضع في مظهره ، العميق الرفيع في عظمته ، فينقلان الحجارة ، ويرفعان البناء : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧ـ١٢٨].

وقام البيت على أساس من إيمان وإخلاص ليس لهما نظير في الدنيا ، وتقبَّله الله بقبول حسن ، وقضى ببقائه ، وكساه الجمال والجلال ، وعطف إليه القلوب والنفوس ، وجعله مهوى الأفئدة ومغناطيس القلوب ، يودّ الناس لو يسعون إليه على رؤوسهم ، ويصلون إليه ببذل مُهجهم ونفوسهم ، مع تجرُّده عن كل ما يستهوي القلوب ، ويستلفت الأنظار ، ووقوعه في بلد بعيد عن جمال الطبيعة وبَهرج المدنية ، ولما كان ذلك نودي إبراهيم: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٧ـ ٢٩].

كان العالم في عصر إبراهيم عليه السلام خاضعاً للأسباب ، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً ، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها ، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله ، وأصبح هذا الخضوع للأسباب ، وتقديسها ، والاعتماد عليها وثنيّة أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها ، وغَلوا من عبادة الأصنام والأوثان ، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيين ، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص ، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء ، وأنه يخلق الأشياء من عدم ، وأنه يخلق الأسباب

ويملكها ، ويفصل الأسباب عن المسببات ، وينتزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها ، ويستخرج منها أضدادها ، ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء ، أشعل الناس له النيران ، وقالوا: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨] ، وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها ، إنما هي طبيعة مودعة أمانة فيها ، إذا أراد أطلق لها العنان ، وإذا أراد أمسك الزمام ، وحوَّلها إلى برد وسلام ، فخاضها مؤمناً مطمئناً واثقاً ، وهكذا كان: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩ـ ٧٠].

واعتقد الناس أنه لا حياة إلا بالخصب والميرة والماء الغزير ، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم ، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة تكثر فيها المياه ، ويتوفَّر فيها الخصب ، وتسهل فيها التجارة والصناعة ، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة ، والعُرف الشائع ، والاعتماد على الأسباب ، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكونة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع ، لا زراعة فيه ولا تجارة ، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ، ومواضع الرخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ، ويعطف إليهم القلوب ، ويجبي إليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف ، فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ

بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وأجاب الله دعاءه، فضمن لهم الرزق والأمن، وجعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧] ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣-٤] تركهم في أرض لا أثر فيها لماء يروي الغلَّة، ويبلّ الحلقوم، فإذا بماء يفور من الرمال، ويفيض من غير انقطاع، يشربه الناس في سخاء، ويحملونه إلى بلدهم، ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه، فإذا به يُصبح مكاناً يؤمه الناس من كل صوب، ويأتون إليه من كل فج عميق.

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدّياً للمادية المسروقة الشائعة في عصره، وعبادة الأسباب واتخاذها أرباباً من دون الله، ومثالاً للإيمان بالله، وقدرته المطلقة، وإن إرادته فوق كل شيء، وهكذا كانت سنة الله معه، يُخضع له الأسباب، ويخلق له ما تحار فيه الألباب.

الحج تخليد لخصائص إبراهيم ومآثره وتجديد لدعوته وتعاليمه:

والحج، ومناسكه، وما يحيط به من ذكريات وحوادث،

وما يتلبس به الحاج من التجرد عن المظاهر ، وما يأتي به من عمل ونسك من إحرام ، ووقوف ، وإفاضة ، ورجم ، وسعي ، وطواف تخليد لما اختص به إبراهيم عليه السلام من التوحيد ونفي الأسباب ، والتوكل على الله ، والتفاني في سبيله ، وإيثار لطاعته ومرضاته ، وتمرد على العادات والأعراف ، والمعايير الزائفة ، والمثل المصطنعة ، وتجديد لذلك الإيمان القوي ، والحب العميق ، والتضحية الفائقة ، والإيثار الرفيع ، والحج ضامن لبقاء هذه المعاني السامية كلها ، وهذه القيم الربانية كلها ، وبقاء الجامعة الإسلامية الإنسانية التي هي فوق القوميات والعنصريات والوطنيات المحدودة المصطنعة ، ودعوة للناس إلى أن يسيروا على نهج إبراهيم ، ويتشبَّعوا بروحه ، ويقوموا بدعوته في كل عصر وفي كل مكان: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

عنوان جديد وخط فاصل في كتاب الإنسانية:

إن إبراهيم ودعوته وجهاده عنوان جديد ، نيِّر مشرق في كتاب الإنسانية وامتدادها ، ينفصل به التاريخ ، وتتوزّع به الإنسانية بين المعسكرين ، يخلدان مع الزمن ، ويبتدئ به عهد وينتهي به عهد ، وقد جعل الله لإبراهيم الإمامة الخالدة ، والكلمة الباقية ،

وجعل في ذريته النبوة والولاية ، والوصاية الدينية على العالم للأبد ، وكتب لأسرته ومن دخل داره الجهاد للحق ، والوقوف في وجه الباطل إلى آخر الأبد ، والدعوة إلى الله ، وتجديف سفينة البشرية في عواصف هوجاء ، وأمواج عاتية ، والمحافظة على هذا السراج من أن ينطفئ ، وهو العامل البنَّاء الوحيد الذي استعمله الله في إسعاد البشرية ، وعصمها من تخريب العالم ، وتدمير الإنسانية ، وسوقها إلى الجحيم.

عماد الإنسانية ، وقيام للناس:

والحج وشهود الموسم ، والتقاء أبناء ملَّة إبراهيم في مكة كل عام ، هو كاف لبقاء هذه الصلة بين إبراهيم وأتباعه وأبنائه الروحيين ، وتجديد هذه المعاني والعقائد والأهداف التي فيها بقاء هذه الملة والإنسانية كلها؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

مركز دائم للهداية والإرشاد والإصلاح والجهاد:

وجاء عهد الإسلام ، ودور الرسالة المحمدية الخالدة ، فأصبح هذا البيت مركزاً للهداية والإرشاد ، والإشعاع الروحي ، والغذاء العاطفي ، تقام حول المناسك ، وتغذَّى به العاطفة ، وتشعل به

مجامر القلوب ، وتشحن به «بطاريتها» الفارغة ، ويتلقى منه الرسالة الدينية ، ويجتمع حوله العالم الإسلام كل عام ، يؤدي خراجه من الطاعة ، وضريبته من الحب والانقياد ، ويثبت تمسكه بهذا الحبل المتين ، ولجوءه إلى هذا الركن الركين ، ويطوف حوله أعظم العلماء والعقلاء ، والزعماء والعظماء ، والملوك والأمراء ، والأغنياء والفقراء ، وفي وله وهيام ، وفقه وحكمة ، يثبتون أنهم مجتمعون على تفرق ، متوحدون على تعدد ، متركزون على انتشار أغنياء على الفقر ، أقوياء على الضعف ، ينتشرون في العالم ، ويسعون في أرزاقهم ومصالحهم ، وينتسبون إلى أمم وسلالات ، ويختلفون في الحضارات والثقافات ، ويلتقون على نقطة واحدة وحول نقطة واحدة ، وحياتهم كلها طواف وسعي ، ونسك وعبادة ، وإيمان وعقيدة ، ومقاماتهم كلها منى وعرفات ، وأسفار ووقفات ، وإنما هم في رحلة دائمة ، وتقدم مستمرّ ، وتعارف متكرّر ؛ حتى يقضوا نحبهم ، ويلقوا ربهم .

إلى مدينة الرسول ﷺ ، ومسجده العظيم:

وكان من الطبيعي بعد ذلك كله أن يحنّ المسلم لا سيما الوافد من مكان بعيد إذا قضى حجَّه ، وأدّى مناسكه إلى مهجر خاتم المرسلين ، ومثواه الأخير ، ومأرز الإسلام ، إلى المسجد الذي انبثق منه النور ، وانطلقت منه موجة الهداية والعلم ، وقوة الإسلام في العالم إلى المدينة التي آوى إليها الإسلام ، وتمثَّلت

فيها فصول التاريخ الإسلامي الأول ، وابتلّ ترابها بدموع الصحابة رضي الله تعالى عنهم ودمائهم ، فيصلي في المسجد الذي تعادل ركعة فيه ألف ركعة في غيره[1] ، ويقف في مواقف ، وقف فيها الشهداء والصديقون ، والسابقون الأولون ، فيستمد منها الصدق الإيمان ، والحب والحنان ، والبطولة والشهادة في سبيل الإسلام ، ويصلّي ويسلِّم على هذا النبي الذي خرج بدعوته وجهاده من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وذاق لأول مرة حلاوة الإيمان ، وعرف قيمة الإنسان.

عرضة سنوية تحفظ على الأمة نقاءها وأصالتها ، وتعصم الدين عن التحريف والفساد الشامل:

والحج عرضة سنوية للملَّة ، يرجع إليها الفضل في نقائها وأصالتها ، وفي بقاء هذا الدين بعيداً عن التحريف والغموض والالتباس ، وفي بقاء هذه الأمة بعيدة عن الانقطاع عن الأصل والمصدر والأساس ، محفوظة من المؤامرات والمغالطات التي وقعت أمم كثيرة فريستها في الزمن الماضي ، وعن طريق هذه المؤسسة العظيمة الحكيمة تبقى هذه الأمة العظيمة الخالدة

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» (متفق عليه).

محتفظة بطبيعتها الإبراهيمية ، الولوع الحنون ، العطوف الرؤوف ، الثائرة القوية ، الحنيفيَّة السمحة ، وتتوارثها جيلاً بعد جيل ، فكأنها القلب الحي القوي الفياض الذي يوزع الدم إلى عروق الجسم وشرايينه ، وبها تستعرض هذه الأمة مجموعها في صعيد واحد ، فينفي بذلك علماؤها وزعماؤها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وخرافة المخرفين ، ويردونها إلى الأصل الإبراهيمي الحنيفي ، وإلى الشرعة المحمدية (الصافية) وإلى الدين الخالص ، وبها تستطيع هذه الأمة أن تحافظ على وحدتها الدينية والعقلية والثقافية ، وتعتصم عن أن تؤثِّر فيها الإقليمية والمحلية تأثيراً يفقدها الوحدة الحنيفية الإبراهيمية ، والصبغة الإسلامية المحمدية ، كما كان شأن الديانات السابقة الكثيرة ، والأمم الدينية العديدة.

لقد قدّر الله لهذه الأمة الخالدة أن تعيش في بيئات مختلفة ، وفي أقاليم عديدة ، وتجتاز أدواراً كثيرة جداً ، مختلفة جداً من حرارة وقوة وجمود وخمود ، وعنف وقسوة ، ومصارعة ومقاومة ، وإغراءات مادية وسياسية ، وتقدم في الحضارة والمدنية ، وتوسّع في المال والمادة ، وضيق وضنك ، وبذخ وترف ، وعسر ويسر ، وشدة ورخاء ، وتسلُّط عدو قاهر وملك جائر ، وكانت الأمة في حاجة دائمة إلى إشعال جذوة الإيمان ، وإثارة عاطفة الحب والحنان ، وإعادة الوفاء والولاء في سائر

الأجزاء والأعضاء ، فجعل الحج ربيعاً تورق فيه أغصان هذه الشجرة الخالدة كل عام ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وتكتسي فيه هذه الشجرة العالميَّة لباساً جديداً قشيباً ، غضاً طرياً.

وقد سبق شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بما أكرمه الله من فقه دقيق ، وفهم عميق لأسرار التشريع ومقاصد الإسلام ، فأشار إلى هذه النكتة في كتابه «حجة الله البالغة» فقال:

(وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة ليتميَّز الناصح من الغاش ، والمنقاد من المتمرد ، ليرتفع الصيّت ، وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها فيما بينهم ، فكذلك الملَّة تحتاج إلى حج ، ليتميَّز الموفق من المنافق ، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً ، وليرى بعضهم بعضاً ، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده ، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي)[1].

وقال: (وإذا جعل الحج رسماً مشهوداً نفع عن غوائل الرسوم ، ولا شيء مثله في تذكُّر الحالة التي كان فيها أئمة الملَّة والتحضيض على الأخذ بها)[2].

وقال: (ومنها تحقيق معنى العرضة ، فإن لكل دولة أو ملة

---

(١) حجة الله البالغة (ج١ ص ٥٩ ـ ٦٠).

(٢) حجة الله البالغة (ج١ ص ٥٩ ـ ٦٠).

اجتماعاً يتوارده الأقاصي والأداني ، ليعرف فيه بعضهم بعضاً ، ويستفيدوا أحكام الملَّة ، ويعظموا شعائرها .

والحج عرضة المسلمين ، وظهور شوكتهم ، واجتماع جنودهم ، وتنويه ملَّتهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾)[1] .

مركز الإشعاع العالمي الخالد:

وقضى الله أن لا يخلو «الحج» في أشد أيام هذه الأمة وأحلكها من الربانيين المخلصين ، ومن الصالحين المقبولين ، ومن الدعاة المرشدين ، ومن الداعين المبتهلين ، ومن الخاشعين المنيبين ، ومن العلماء الراسخين الذين يملؤون الجو روحانية وخشوعاً ، فترق القلوب القاسية ، وتخشع النفوس العاصية ، وتفيض العيون الجامدة ، وتلتهب المجامر الخامدة ، وتنزل رحمة الله ، وتغشى السكينة ، ويخزى الشيطان ؛ لذلك جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا بما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام»[2] ، ويتكهرب الجو فيشحن المسلمون ـ الذين جاؤوا من كل صوب بعيد وفج عميق ـ

---

(١) المصدر السابق (ج٢ ص ٤٢) .

(٢) رواه مالك مرسلاً .

(بطارية) قلوبهم الفارغة ، ويأخذون زاداً من إيمان وحب وحماسة ، وعلم وفقه ، يعيشون عليه في حياتهم الباقية ، ويقاومون به كل ما يواجهونه من إغراء وتسويل ، وتخويف وتزيين ، ويشركون في هذا الزاد إخوانهم المسلمين الذين قعد بهم الفقر أو الضعف ، أو المرض أو العدو ، وهكذا يجري هذا التيار الكهربائي الإيماني في جسم هذه الأمة المنتشرة في الآفاق ، فيتعلم الجاهل ، ويقوى الضعيف ، ويتحمس الخامد ، وتكتسب الأمة بذلك قوة جديدة على تأدية رسالتها ، وتستأنف كفاحها من جديد .

مظهر الجامعة الإنسانية الإسلامية:

والحج انتصار للقومية الإسلامية على القوميات الوطنية والعنصرية واللسانية؛ التي قد يصبح بعض الشعوب الإسلامية فريستها تحت ضغط عوامل كثيرة ، وهو إظهار لشعار هذه القومية ، فتتجرَّد جميع الشعوب الإسلامية عن جميع ملابسها وأزيائها الإقليمية التي تميز بعضها عن بعض ، ويتعصب لها أقوام ، وتظهر كلها في مظهر واحد يسمى (الإحرام) في لغة الدين والفقه ، وفي مصطلح الحج والعمرة ، حاسرة رؤوسها ، ما بين رئيس ومرؤوس ، وصغير وكبير ، وغني وفقير ، وتهتف كلها في لغة واحدة ونغمة واحدة: «لبيك اللهمَّ لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك» ، وهكذا

تتجلى القومية الإسلامية في اللباس والهتاف ، وهما من أوضح ما تجلّت فيه قومية ، وفي وحدة المناسك والغايات التي يقوم بها جميع الأفراد والشعوب ، ويسعى إليها العرب والعجم ، ويلتقي عليها القاصي والداني ، فكلهم يطوفون حول بيت واحد ، ويسعون بين غايتين مشتركتين : (الصفا والمروة) وكلهم يقصدون (منى) ، وكلهم يؤمون (عرفات) ويقفُون في موقف واحد ، وكلهم يبيتون في مبيت واحد : ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [البقرة: ١٩٨] ، ويفيضون إفاضة واحدة : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة: ١٩٩] ، وكلهم يقفون أياماً في (منى) تجمع بينهم أشغال واحدة من نحر ، وحلق ، ورمي .

وما دام الحج ـ والحج فريضة باقية إلى يوم القيامة ، ومؤسسة خالدة خلود هذه الأمة ـ فالمسلمون لا تبتلعهم القوميات ، كما ابتلعت أمماً كثيرة ، ولا يصبحون ضحيتها ، ولا تكون بلادهم التي يحبُّونها بسائق الفطرة والعاطفة والعصبية قبلة يتوجهون إليها ، وكعبة يحجون إليها ، إنما هي قبلة واحدة يتوجه إليها الشرقي والغربي ، والعجمي والعربي ، إنما هي كعبة واحدة يحجُّ إليها الهندي والأفغاني ، والمسلم الأوروبي والأمريكي : ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ ﴾ [البقرة:

١٢٥] ويحنّ إليها المسلم في أقصى الأرض ، وينذر لهذه الرحلة النذور ، ويسعى إليها على الرأس والعين ، ويعتبر ذلك غاية الأوطار ، وأقصى الأماني ، وأعظم السعادات.

ليشهدوا منافع لهم:

وشرع الحج لجميع هذه الفوائد والمنافع التي نعلم منها الكثير ، ونجهل منها الكثير ، وربما كان ما نجهله ، ونتمتع به أكثر مما نعرفه ، ومما نوّه به حكماء الإسلام ، وأشادوا به في مؤلفاتهم ، فقد قال الله تعالى : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج : ٢٨] فأطلق المنافع ، ونكّرها ، وأبهمها ، ودلّ هذا التعبير البليغ على كثرتها وتنوعها وتجددها ، في كل زمان ، وأنها أكثر من أن يأتي عليها الإحصاء والاستقصاء[١].

---

(١) إن الحج لا شك موسم يشهده المسلمون من آفاق الأرض ، ونواحي العالم الإسلامي ، ليشهدوا منافع لهم ، فيستطيعون أن يتبادلوا الرأي السديد ، والفكر الحصيف ، ويتعرف بعضهم ببعض ، ويجتمعوا على كلمة واحدة ، ومصلحة راجحة راشدة.
ولكن ليست هذه حكمة الحج الوحيدة ، كما اعتاد الكتاب العصريون أن ينوهوا بها ، وليس الحج مؤتمراً سياسياً فحسب ، كما يصوره كثير من حملة الأقلام ، ورجال السياسة والاجتماع في هذا العصر ، فلو كانت هذه هي الحكمة التي شرع لها الحج ، لكان في الحج استقرار ، وساده جو من الهدوء يساعد على ذلك ، ولكنه اضطراب وانتقال من مكان إلى مكان ، ومن نسك إلى نسك ، ولكانت دعوة مقصورة على العلماء والزعماء ، =

يجب أن يمثل البلد الأمين الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي المثالي في كل زمان:

ولما كان الحج عرضة سنوية للملَّة ، يلتقي فيها المسلمون على صعيد واحد من العقيدة والعاطفة والغاية ، في جو ديني ربَّاني ، وفي محيط روحي إيماني ، يستمدون منه قوة جديدة ، وروحاً جديدة ، ويُصحِّحون ما وقع في عقيدتهم من انحراف ، وفي عاداتهم وشعاراتهم من فساد ، وما اعتراهم من زيغ أو وهن بتأثر الحضارات والفلسفات العجمية الأجنبية ، وتقليد الشعوب والأمم التي تجاورهم ، أو يعيشون فيها ، ويستطيعون أن يردّوا كل شيء إلى أصله ، وأن يستقوا الدين من منابعه الصافية الأصيلة؛ وجب بحكم العقل والمنطق ، وبحكم روح الإسلام ، وحكمة الحج ، أن يظل البلد الأمين الذي يقع فيه الحج ، ويدور حوله أميناً للحياة الإسلامية الصافية الأصيلة ، يصور الحياة

= والأذكياء والنبهاء ، وعلى الخاصة من المسلمين ، إنها لا شك ثمرة من ثمرات الحج ، ولكن ليست هي الغاية التي شرعت لها هذه الفريضة العظيمة ، وقد فرضت على المسلمين ، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً» ولكان له وضع غير هذا الوضع ، ومكان غير هذا المكان القاحل النائي.

الإسلامية بجميع جوانبها ومزاياها ومظاهرها ، حتى يلمسها ويتذوّقها كل وارد إليه مهما قصرت إقامته ، وقلَّت معرفته؛ لأن الله قد قضى أن يكون هذا البلد مركز الحج إلى آخر الزمان ، ومثابة للمسلمين من جميع أنحاء العالم في كل سنة ، يَفِدون إليه ، وهم مؤمنون بحق بأنهم يقصدون بلداً هو معدن الطهر ، ومولد الدين وعاصمة الإسلام الروحيَّة ، وكل ما يشاهد ويسمع في جوانبه هو حجة للمسلم الغريب الذي يعيش بعيداً عن مهد الإسلام ، وليس بعد عمل أهل مكة والمدينة حجة عند عامة المسلمين (وما وراء عبَّادان قرية).

وهذه الطبيعة البشرية التي لا نستطيع أن نتغلَّب عليها بمنطق أو دليل ، أو خطابة أو بلاغة ، وهو الاحتجاج بعمل أهل المركز زعيم لدين أو حضارة ، وهو العرف الذي جرى في مجال اللغة والآداب ، والحضارة والفقه ، فكانت لغة قريش ، ثم لغة البادية العربية ، هي الحجة في اللغة العربية ، ومناهج كلامها ولهجاتها ، وكان عمل أهل المدينة حجة في مذهب كبير من المذاهب الفقهية الإسلامية[١] ، وظلَّ عمل أهل قرطبة حجة عند كثير من فقهاء المغرب عندما كانت في أوجها العلمي الثقافي ، وكانت مجمع العلماء والقضاة ، واحتجّ الناس قديماً وحديثاً

---

(١) كالمذهب المالكي.

بعادات عاصمة البلاد ومركزها الحضاري ، وتنافس الناس في تقليدها ، ورأوا فيها المثل الكامل ، والقدوة في الحضارة والأناقة والظرف ، ودعاة الإسلام ، وزعماء الإصلاح يلقون صعوبة ومحنة ، إذا احتجّ الحجَّاج بما قد يشاهدونه ويسمعونه في مركز الإسلام ومهبط الوحي؛ مما لا يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية أو آدابها ، ويصعب إزالتهم عن ذلك)[١] .

يجب أن يبقى «البلد الأمين» محتفظاً بطراز خاص ، والحج بروح الجهاد والتقشف:

وجانب أدق من هذا ، وهو أن يبقى هذا البلد الأمين ـ على مرّ العصور والأجيال ، ورغم تطورات المدنية ، ومرافق الحياة في العالم ـ محافظاً على شيء من البساطة والطبيعة ، وعلى شيء من التقشف ، ويتذكَّر فيه الوافدون من أنحاء العالم الجوّ الذي كان المسلمون الأولون يقضون فيه مناسكهم ، ويشعرون بشعورهم ، أو قريب من شعورهم، ويشعرون بانتقال من عالم إلى عالم، ومن جوّ إلى جوّ، ومن حياة إلى حياة، فإنّ هذا الشعور يحدث في النفوس تخلياً عن الماضي ، واستعداداً لتلقّي شيء جديد ، وفرحة روحية لا يشعرون بها في مكانهم ، أما إذا بقي البيت وحده ، والحرم

---

(١) مقتبس من حديث ألقاه المؤلف في المؤتمر الإسلامي؛ الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي في مكة سنة ١٣٨٤هـ.

وحده على قِدَمهما ، وتغير كل شيء حولهما ، وأصبح البلد الأمين ، وما جاوره من البقاع قطعة من أوروبة أو أمريكا ، وحلت المدنيَّة الغربيَّة بخيراتها وشرورها ، وبأصولها وفضولها ، وأصبح الحاج الذي وصفه لسان الشرع «بالشعث التفل» يتقلّب في أعطاف المدنية والنعومة ، وينتقل من راحة إلى راحة ، ومن تنعُّم إلى تنعُّم ، ومن حديث إلى أحدث ، فإنه لا يشعر بشيء جديد قوي يحدث في مشاعره انقلاباً ، ويشحنه شحناً روحياً.

ولذلك اعتبر الحج صنو الجهاد ، وقد روى البخاري عن عائشة مرفوعاً: «أفضل الجهاد وأجمله حج مبرور» وعنها قالت: قلت: يا رسول الله! نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ فقال: «لكن أفضل الجهاد حج مبرور» ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول: «شدُّوا الرحال في الحج ، فإنه أحد الجهادين». وإذا تطورت مكة تطوراً جذرياً ، واقتبست من الحضارة الغربية جميع مرافقها ووسائلها ، وتوفَّرت للحج جميع أسباب الراحة والتنعم التي لا توجد إلا في العواصم الغربية الكبرى ، شعر الحجاج بشيء من الفراغ الروحي ، وبشيء من الجفاف ، وبانحطاط ملموس في فوائد الحج ، وآثاره في النفس والحياة.

التشريعات الحكيمة لزيادة فائدة الحج ، وتقوية أثره في النفس والحياة:

وقد هيأ الوحي الإلهي والتشريع السماوي للحج جواً يثير

الجدّ والقصد ، وينبّه النفس والفكر ، ويحوطه بسياج من العبادة والروحانية والقدسية ، فإنه كان في أكثر الأحيان رحلة طويلة ، وانتقالاً من بلد إلى بلد يمر فيه الحاج ببقاع مختلفة ، وأجواء متنوعة ، وملاذّ وملاه ، وشواغل وصوارف قد تقصر فيها المدّة وقد تطول ، ويدخل في بلد جديد ، ويختلط بأقوام وطبقات كثيرة ، ويخرج النساء مع الرجال ، وفيهم الشيوخ والشباب ، وقد تجتمع أفراد الأسرة أحياناً ، ويكون الرجل مع زوجه وأهل بيته ، وكل ذلك خليق بأن يُفقد الحج روعته ومهابته وقدسه ، وروح العبادة والجهاد فيه ، وتصبح هذه الرحلة كأي رحلة عادية طبيعية ، أو الإقامة في مكة ، والتنقل في مواضع المناسك كأي إقامة في أي بلد.

لذلك أضفى التشريع على الحج لوناً لا يزول ، لوناً من الجدّية والقدس ، وحاطه بأسوار وخنادق عديدة جعلته بعيداً عن الغفلة والذهول ، والعبث والفضول ، وله في ذلك تشريعات دقيقة حكيمة ، كانت كفيلة بأن يبقى الحج عبادة عميقة الأثر في النفس والحياة ، وركناً من أركان الإصلاح والتربية ، ووسيلة قوية للتقرّب إلى الله.

منها : أنه جعل ركناً من أركان الإسلام الأربعة ، وفريضة على من استوفى شروطها ، لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً ، فقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ

﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٧] ، وقد روى الترمذي عن علي رضي الله تعالى عنه رفعه: «من ملك راحلة وزاداً يبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً» وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ، وقال النبي ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً»[١].

وقد نوَّه لسان النبوَّة بفضل الحج ومكانته عند الله ، وأكثر من بيان فضائله؛ لأنها هي التي تثير في النفس الشوق والرغبة ، وتبعث الإيمان والاحتساب ، فلا قيمة لعمل أو عبادة حتى تقترن بهما ، ويكونان هما الباعثين على إتيانها ، فقد روى الستَّة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» ، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجّ لله فلم يرفث ، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[٢] وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس لحجة

---

(١) متفق عليه.

(٢) للستة ، إلا أبا داود.

مبرورة ثواب إلا الجنة ، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه»[١] عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة»[٢] وسُئل النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» ، قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[٣].

ومن هذه التشريعات الدقيقة الحكيمة «المواقيت» التي تُنبِّه في الحج شعوراً جديداً ، ويقظة فكرية روحية ، فيعرف أنه دنا من الحضرة الملوكية ، ودخل في حدودها المحمية المقدسة ، فلولا المواقيت لاقتحم الحجاج الحضرة المقدسة ، وهجموا عليها كما يهجم الجهال الأجلاف على حضرة الملوك ، وعتبة السلاطين ، فيقابلون باستنكار وجفاء ، وطرد وإهانة. وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بيان حكمة المواقيت ، وسر تشريعها وتعيينها للقاصدين من جهات مختلفة ، قال:

(الأصل في المواقيت ، أنه لما كان الإتيان إلى مكة شعثاً تفلاً ، تاركاً لغلواء نفسه مطلوباً ، وكان في تكليف الإنسان أن يحرم من بلده حرج ظاهر ، فإن منهم من يكون قطره على مسيرة

---

(١) للنسائي ، والترمذي بلفظه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

شهر وشهرين وأكثر ، وجب أن يُخَصّ أمكنة معلومة حول مكة يحرمون منها ، ولا يؤخرون الإحرام بعدها ، ولا بد أن تكون تلك المواضع ظاهرة مشهورة؛ ولا تخفى على أحد ، وعليها مرور أهل الآفاق ، فاستقرأ ذلك ، وحكم بهذه المواضع ، واختار لأهل المدينة أبعد المواقيت؛ لأنها مهبط الوحي ، ومأرز الإيمان ، ودار الهجرة ، وأول قرية آمنت بالله ورسوله ، فأهلها أحق بأن يبالغوا في إعلاء كلمة الله ، وأن يخصوا بزيادة طاعة الله ، وأيضاً فهي أقرب الأقطار التي آمنت في زمان رسول الله ﷺ ، وأخلصت إيمانها بخلاف جواثى والطائف واليمامة وغيرها ، فلا حرج عليها)[١] .

ومنها: «الإحرام» الذي ينبه في الحاج الشعور والانتباه ، ويكون حارساً له عن الغفلة والذهول ، وينبهه إلى أنه مقبل على أمر عظيم ، وأنه قاصد للحضرة الملوكية ، وإلى أنه تجرد مما كان فيه من مظاهر جوفاء ، وشعارات زائفة ، وأبّهة مصطنعة ، فيصير هذا الإحرام كالتحريمة للصلاة تنقله من جو إلى جو ، ومن حرية وانطلاق إلى تقيد وارتباط. يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي رحمة الله عليه :

(اعلم أن الإحرام في الحج والعمرة بمنزلة التكبير في

---

(١) حجة الله البالغة (ج٢ ، ص ٤٤).

الصلاة ، فيه تصوير الإخلاص والتعظيم ، وضبط عزيمة الحج بفعل ظاهر ، وفيه جعل النفس متذللة خاشعة لله بترك الملاذ والعادات المألوفة وأنواع التجمل ، وفيه تحقيق معاناة التعب والتشعث والتغبر لله)[١] .

وكذلك شرع للخروج من الإحرام والتحرر من قيوده وأحكامه طريقة ظاهرة ، تُنبِّه في النفس الشعور ، ولا يصعب إتيانها ، فلا يخرج الحاج من إحرامه فلتة أو مفاجأة ، ويتمتع بالمباحات ، إلا بعمل ظاهر ، وقصد وإرادة ، كما لا يخرج من صلاته إلا بالتسليم ، وهو الحلق ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

(السر في الحلق أنه تعيين طريق للخروج من الإحرام بفعل لا ينافي الوقار ، فلو تركهم وأنفسهم لذهب كل مذهباً ، وأيضاً ففيه تحقيق انقضاء التشعث والتغبر بالوجه الأتم ، ومثله كمثل السلام من الصلاة)[٢] .

ومنها : «التلبية» التي حث الشرع على الإكثار منها ، واستحسن النبي ﷺ رفع الصوت بها وتكثيرها ، وقد سئل : أي الحج أفضل؟ قال : «العجُّ والثجُّ»[٣] .

---

(١) حجة الله البالغة (ج٢ ، ص ٤٤) .

(٢) حجة الله البالغة (ج٢ ، ص ٤٥) .

(٣) رواه ابن ماجه في سننه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما .

وفي التلبية تأثير غريب في تنبيه النفس وإيقاظها لمقاصد الحج ، وشحنها بالإيمان والحنان ، والاطّراح على عتبة الرحمن ، وبها يسري التيار الإيماني الروحي في جسم الحاج ومشاعره وأعصابه ، كما يسري التيار الكهربائي في الأسلاك ، ويُعد الحاج للاستفادة من هذا الركن العظيم؛ الذي قد يكون قد هجم عليه من غير استعداد ، أو من غير تفقه ووعي ، فإذا قال: (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك) ، تمثل له الحج ومقاصده العظيمة وروحه ، وثارت فيه الأشواق ، وفاضت كأس الحب والحنان ، والتهبت شعلة التوحيد في عروقه ودمه ، واتصل بإبراهيم الخليل ، الموحد الحنيف ، واتصل بمحمد ﷺ ، والداعين بدعوته اتصالاً فكرياً روحياً ، واندمج في حزبهم.

وقد جمع الله للحج حرمتين: حرمة الزمان والمكان ، ليقوى الشعور بحرمة هذا الركن العظيم ، وجلاله ، وروعته ، والشعور بالمسؤولية ، وليكون الحاج في جميع تنقلاته وحركاته وسكناته مرهف الحس ، حاضر الفكر ، لا يذهل لحظة عن الجو الروحاني الذي يحيط به.

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦] ، وقال:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ ﴾ [البقرة: ٢١٧] ، وقد روى مسلم عن النبي ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات: ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم ، ورجب مضر ، الذي بين جمادى وشعبان».

وأما حرمة المكان فقد جاء في القرآن: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح (فتح مكة): «لا هجرة ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا» وقال يوم الفتح ـ فتح مكة ـ: «إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحلّ فيه القتال لأحد قبلي ، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضَد شوكه ، ولا ينفَّر صيده ، ولا يلتقط لقطته ، إلا من عرّفها ، ولا يختلى خلاها»[١] وقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال: «إلا الإذخر».

وقد كانت المعصية في الحرم أغلظ وأشد ، وقد استدل بعض

---

(١) الخلا: النبات الرطب ، واختلاؤه: قطعه.

العلماء على أن إرادة المعصية فيه معصية ، بخلاف غيره من البقاع ، بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] . قال ابن كثير : وهذا من خصوصية الحرم ، أنه يعاقب البادئ فيه الشر إذا كان عازماً عليه ، وإن لم يوقعه .

وقد ضم إلى ذلك كله حرمة الإحرام ، وشرع له أحكاماً وآداباً خاصة ، منها : حرمة الصيد في حالة الإحرام ، فقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : ٩٥] وقال : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1] [المائدة : ٩٦] .

يقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمة الله عليه :

(وإنما شرع أن يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقاً للتذلل ، وترك الزينة والتشعث ، وتنويهاً لاستشعار خوف الله وتعظيمه ، ومؤاخذة نفسه ، أن لا تسترسل في هواها ، وإنما الصيد تلهٍ وتوسع)[2] .

ولما كان الحج سفراً طويلاً في غالب الأحيان ، وقد قال الله

---

(١) واقرأ تفسير الآيتين والأحكام الفقهية المتفرعة منهما ، وما في ذلك من خلاف وتفصيل في كتب التفسير ، وأحكام القرآن .

(٢) حجة الله البالغة (ج٢ ، ص ٤٤) .

تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] ، وانتقالاً من حال إلى حال ، ويكثر فيه الاختلاط ، وتطول الزمالة ، وتتنوع المعاملات ، كان ذلك مثاراً لكثير من المحظورات والمغريات والمناقشات ، وكثيراً ما تثور النفس ، ويضيق الصدر ، وينفد الصبر ، فيلجأ الحاج إلى ما يتحاشى عنه في الوطن والإقامة ، والأحوال العادية ، ويتورط في بعض المعاصي والأخلاق القبيحة ، وما ينافي روح الحج ومقاصده ، فجاء النهي عن ذلك بصفة خاصة في الحج؛ لأن الحج مظنة قوية له ، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ[1] فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ[2] وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد أسبغت هذه التشريعات ، وهذه الأحكام التي تتصل بالقلب والجوارح ، والقصد والعمل ، والزمان والمكان على الحج لباساً من القدس والطهر ، والتورع والتقشف ، والمراقبة لله

---

(١) هي شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة ، علقه البخاري بصيغة الجزم ، ورواه ابن جرير موصولاً ، وهو مروي عن أكثر الصحابة وفضلاء التابعين ، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، (راجع تفسير ابن كثير).

(٢) اقرأ تفسير الكلمات وأمثلتها في كتب التفسير والأحكام.

تعالى ، والحسبة للنفس والجهاد ، لا يشاركه فيه ما يماثله ، أو يدخل في موضوعه في الديانات الأخرى وطوائف الأمم ، وكانت لها آثار عميقة في النفس والأخلاق والحياة ، يتحقق معها قول النبي ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه»[١].

حجة الوداع وقيمتها التربوية والبلاغية:

حج رسول الله ﷺ سنة عشر من الهجرة ، وشهد معه هذا الحج أكثر من مئة ألف من المسلمين ، وهي حجة الوداع[٢].

وقد دلَّت كل القرائن على أن هذه الحجة كانت مقصودة من الله بهذا التفصيل ، ولم تكن فلتة من الفلتات ، بل جاءت في وقتها المناسب ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ وكان في تأخيرها إلى هذا الوقت حكمة بالغة ، ومصلحة راجحة ، فقد انتشر الإسلام في جزيرة العرب ، وكثر المسلمون ، وقوي الإيمان ، وشبَّ الحبُّ ، واستعدت النفوس للتعلم والاستفادة ، وهفت القلوب ، ورنت العيون إلى المشاهدة والمراقبة ، ودنت ساعة الفراق ، فألجأت الضرورة إلى وداع الأمة ، فخرج رسول الله ﷺ

---

(١) رواه الستة عن أبي هريرة ، إلا أبا داود.

(٢) وتسمى حجة الإسلام ، وحجة البلاغ ، وحجة التمام. (البداية والنهاية والخميس).

من المدينة ليحج البيت ، ويلقى المسلمين ، ويعلمهم دينهم ومناسكهم ، ويؤدّي الشهادة ، ويبلّغ الأمانة ، ويوصي الوصايا الأخيرة ، ويأخذ من المسلمين العهد والميثاق ، ويمحو آثار الجاهلية ويطمسها ، ويضعها تحت قدميه .

فكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة ، وألف درس ، وكانت مدرسة متنقلة ، ومسجداً سيَّاراً ، وثكنة جوّالة يتعلم فيها الجاهل ، وينتبه الغافل ، وينشط فيها الكسلان ، ويقوى فيها الضعيف ، وكانت سحابة واحدة تغشاهم في الحل والترحال ، هي سحابة صحبة النبي ﷺ ، وحبه وعطفه ، وتربيته وإشرافه .

وقد كان من آثار نضج المسلمين العقلي ، وقوة حبهم ، وشدة تعلقهم بكل ما يصدر عن هذه الشخصية الحبيبة المفدّاة أن سجلوا كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة ، وكل حادث من حوادثها الصغيرة ، لا يحتفل بأمثالها في رحلات العظماء والرؤساء ، والملوك والأمراء ، والعلماء والنبغاء ، وذلك شأن المحب الوامق ، والعاشق الصادق ، الذي يرى كل شيء لمحبوبه حسناً ، فيتلذذ بذكره ، ويسترسل في حديثه ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها ، ولا دقيقة نادرة إلا يستقصيها .

يتطيب رسول الله ﷺ عند إحرامه ، فيذكرون من باشر هذا التطييب ، ويذكرون نوع هذا الطيب ، فيقولون : «ثم طيبته عائشة

بيدها بذريرة»[1] ، وطيب فيه مسك ، حتى يُرى وبيص المسك في مفارقه ولحيته ﷺ ، ويُشعر رسول الله ﷺ هديه ، فيذكرون تفصيله وتحديده ، هل كان في الجانب الأيمن أو الأيسر ، وكيف سلت عنها الدم ، ويذكرون احتجامه ـ والاحتجام: فعل طبي طبعي لا صلة له بمناسك الحج ـ فيحددون مكانه من الجسم ، وموضعه من الطريق ، فيقولون: «واحتجم بملل» (وملل: موضع بين مكة والمدينة على سبعة عشر ميلاً من المدينة) ويقولون: واحتجم على رأسه بـ «لحي جمل» (وهو موضع في طريق مكة) وتهدى له قطعة لحم ، وهي حادثة عادية تتكرر ، ولا تسترعي الاهتمام في عامة الأحوال ، فيذكرونها بالتحديد والتفصيل ، فيقول الراوي: (حتى إذا كانوا بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشي) ويحددون المنازل بين المدينة ومكة ، ويعدون أيامه في السفر ، وذلك في زمان لم يعرف الناس في كتابة اليوميات ، وتدوين المذكرات ، ولكن الحب يلهم ويخترع ، فيقول الراوي: ثم نهض إلى أن نزل بذي طوى ، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلَون من ذي الحجة ، وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل من يومه ، ونهض إلى مكة).

ولم تفتهم شاردة ولا نادرة في هذه الرحلة التي كثرت فيها

---

(١) وقد أفاض الشراح في وصف الذريرة وأنواعها، وارجع إلى ذلك في مظانه.

الشواغل ، وتعددت فيها المنازل ، واشتد فيها الزحام ، فلم يفتهم أن يقيدوا خروج حيَّة في هذا المشهد الحافل ، وإفلاتها من القتل ، فيقول الراوي وهو يذكر ليلة منى : (وخرجت حيَّة وأرادوا قتلها فدخلت في جحرها) ويذكرون كل من كان رديف[1] رسول الله ﷺ في هذه الرحلة ، ويذكرون اسم الحلاق ، وكيف قسم شعره ، ومن خصَّهم بالشق الأيمن ، ومن خصَّهم بالشق الأيسر ، وهذه كلها تفاصيل ودقائق لم يكن مصدرها إلا الحب العميق .

من العبث وإضاعة الوقت أن يبحث عن نظائرها في رحلات القادة ، وتاريخ المشاهير ، وقد أخلَّت أمم كثيرة بحياة أنبيائها ، وسيرهم ، وأخبارهم ، ومراحل حياتهم ، وضيعوا منها الشيء الكثير ؛ الذي لا تكمل حياتهم ، ولا يتم تاريخهم إلا به ، ولم يحافظوا إلا على النزر اليسير من أخبارهم وأحوالهم ، فجلّ ما نعرف من حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام هي أخبار مدة لا تزيد على خمسين يوماً[2] ، وهنالك أصحاب

(١) وقد استوعب صاحب نسيم الرياض أسماء كل من أردفهم رسول الله ﷺ في حياته ، فذكر نحو ثمانية وثلاثين رديفاً ، وزاد ابن مندة على هذا العدد. راجع كتاب «حجات النبي ﷺ وعمراته» للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي .

(٢) قد جاء في دائرة المعارف البريطانية (ج١٣ ، ص ١٦ ـ ١٧) في المقال =

رسالات وديانات في بلاد متمدنة عريقة في العلم لم تبق إلا أسماؤهم ، ونتف من أخبارهم لا تشفي العليل ، ولا تروي الغليل ، ولا تقود الأجيال ، ولا تنير السبيل.

«الحج والزيارة» في الديانات القديمة ، سماتها وفوارقها :

لم تُعرف أمة ولا ديانة من أمم البشر ودياناتهم ، إلا وعندها أمكنة مقدسة تشد إليها الرحال ، وتحث فيها المطيّ ، ولها طرق وعادات وتقاليد ، وآداب لهذا السفر الديني ، «والزيارة المقدسة» ، وذلك لأن هذا العمل إجابة لحاكم الطبيعة ، وتلبية لنداء الضمير ، فالإنسان ـ كما قلنا ـ لم يزل باحثاً عن شيء يراه بعينه ، ويوجه إليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحة في التعظيم والدنو ، ولم يزل باحثاً كذلك عن عمل طويل شاق يكفِّر به عن ذنوبه الجسام ، وسقطاته الفاضحة ، ليتغلب به على وخز الضمير ، وتأنيب الحسِّ الديني ، ولائمة المجتمع ، ولم يزل في حاجة إلى مشهد ديني عظيم ، يلتقي فيه على الأخوة الدينية والعاطفة الروحية؛ لذلك لم تخل أمة من الأمم ، ولا دور من أدوار المدنية من أسفار دينية ، ومناسك مشهورة ، ومشاهد مقدسة يجتمع فيها الناس ، ويذبحون الذبائح ، ويقرّبون القرابين

= الخاص بالمسيح عليه الصلاة والسلام : «إن فترة حياة المسيح التي وصلت إلينا أخبارها لا تزيد على خمسين يوماً» .

لله تعالى ، أو لآلهتهم ومعبوداتهم ، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج: ٣٤] ، وقال: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧] ، وقد اكتشفت الآثار وعملية الحفر عن هذه المناسك والمشاهد في المدنيات البائدة ، والمدن المطمورة ، وتحدث التاريخ عن وجودها ، وعن بعض أخبارها ، ولكن الاهتداء إلى حقيقتها وتاريخها ، والأحكام والآداب التي تتعلق بها صعب جداً ، فقد لا يرجع الباحث في ذلك إلا بقياسات وأخبار متقطعة مبتورة ، لا يستطيع أن يكوِّن بها فكرة كاملة ، أو صورة واضحة.

والديانة اليهودية ، ثم المسيحية من أقرب الديانات إلينا ، وقد عاشتا زمناً طويلاً في عصر التاريخ والعلم ، وعُني بهما المؤرخون والمؤلفون ، ولا تزالان ديانتي أمتين كبيرتين نشيطتين في الثقافة والتأليف والسياسة ، والبيت المقدس وما حوله من آثار ومشاهد ملتقى هاتين الديانتين ، ومركزهما الروحي الأصيل ، والحج إليه قديم وأصيل عندهما ، ولكن لا يزال هذا الركن الديني الكبير يكتنفه الشيء الكثير من الغموض والاضطراب ، وقلة المعلومات ، (إذا قارنا ذلك بالحج الإسلامي ، الذي تشغل مناسكه وأحكامه وتفاصيله مكتبة واسعة هائلة ، وهو مدوّن تدويناً

لا يجد فيه الباحث عناء). وهنا خلاصة ما جاء في «دائرة المعارف اليهودية» المجلد العاشر[١]:

(إن الحج إلى بيت المقدس الذي كان يدعى بالزيارة «eyiah» يؤدي في زمن ثلاثة أعياد (وهي عيد الحصاد[٢] وعيد الفصح «اليهودي» وعيد المظال) وكان الحج فريضة على جميع اليهود، باستثناء الصغار الذين لم يبلغوا الحلم، والإناث، والعميان، والعرج، والضعفاء، والمصابين بأمراض بدنية أو عقلية، وكانت الشريعة الموسويّة توجب على كل «حاج أو زائر» أن يأخذ معه «تقدمة للرب». ولكنها لم تعين المقدار، وكان رغم إعفاء الإناث والصغار عن الزيارة، كان يؤمه عدد كبير منهم مع الأزواج والآباء كما هو الشأن في الأسواق العامة، ولا تخلو الروايات التي وردت عن عدد الزائرين في أزمنة مختلفة من المبالغة[٣].

---

(١) جيوش إنسباثكلوبيديا (Jewish Encyclopaedia-vol See Pilgrimage).

(٢) جاء في دائرة المعارف اليهودية تحت عنوان: عيد الحصاد، وهو من أعياد الحج الثلاثة الذي كان جميع الذكور مكلفين فيه بالحضور في بيت المقدس، اقرأ عنوان: (Pentecos).

(٣) منها، ما قيل أنه بلغ عدد الخرفان المذبوحة، في عام بين ٦٣ ـ إلى ٦٦م ٢٥٦,٥٥٠، فإذا فرض أن خروفاً كان يساهم فيه عشرة رجال من الحجاج يبلغ عددهم إلى أكثر من مليونين ونصف حاج أو زائر، ويذكر مصدر يهودي أنه بلغ عدد الخراف إلى ١٢٠٠٠٠ خروف، وقد اعترف كاتب المقال في «دائرة المعارف» بأنه لا يخلو من المبالغة.

وكانت الخرفان تذبح في عدد كبير ، وكانت جلود الذبائح تقدّم إلى حراس الخانات؛ الذين كانوا يقومون بخدمة الزوار وإيوائهم من غير مقابل.

ولم تنقطع عبادة الحج بعد تدمير «المعبد» أيضاً ، ولما فتح المسلمون بيت المقدس بقيادة صلاح الدين عام ١١٨٧م ، تسنَّى لليهود القاطنين في المنطقة الشرقية أن يزوروا بيت المقدس ، وما عداه من الأمكنة المقدسة بين (دمشق ، وبابل ، ومصر) ، وقد اعتاد اليهود في الشرق ـ ولا سيما في بابل وكردستان من القرن الرابع عشر الميلادي ـ أن يؤدوا فريضة الحج مرة في السنة على أقل تقدير ، وكان عدد منهم يقوم بهذا الحج مشياً على الأقدام ، وقد كانت الحروب الصليبية مشجعة لليهود في أوروبة على الحج والزيارة ، وفي عام ١٤٩٢م عندما أُجلي اليهود من إسبانيا ، وهاجر عدد كبير منهم إلى مناطق المسلمين ، تضاعف عدد اليهود الزوار ، وربما كانوا يجتمعون على قبر النبي صموئيل في قرية الرامة[(١)] ، حيث كانت تقوم أسواق عيدهم السنوي ، وتقام التقاليد الدينية.

يعاتب اليهود إخوانهم القاطنين في بلدان أخرى؛ الذين ضعفت فيهم رغبة الحج والزيارة ، وزهدوا فيهما ، بينما ينتهز

---

(١) قرية في فلسطين (الخليل).

المسيحيون الفرص لزيارة الأرض المقدسة .

وللحج أيام معينة يسميها اليهود في الشرق وشمالي إفريقية أيام الزيارة ، وقد شاع فيهم أن يزوروا فيها قبور عظمائهم ، ومنهم من اشتهر كملك ، أو كنبي ، أو كصالح وولي ، وهم يحتفلون بهذه الأيام بالإكثار من الأدعية ، وإظهار الفرح والسرور ، شأنهم في الأعياد العامة ، ويجتمعون بين مساء اليوم السابع عشر من تموز إلى اليوم التاسع من آب ثلاثة وعشرين يوماً متوالية ، مقابل الجدار الغربي لهيكل سليمان ، وتبتدئ هذه العبادة في اليوم التاسع من آب من نصف الليل .

وهنالك مشاهد وضرائح وأمكنة محلية يشد إليها الرحال في كل قطر وبلد[١] .

أما الحج والزيارة عند المسيحيين ، فهنا خلاصة لما جاء في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» :

(الحج اسم للرحلة التي يقوم بها الإنسان لزيارة المشاهد المقدسة ، مثل مشاهد الحياة الدنيوية لسيدنا عيسى عليه السلام في فلسطين ، أو مراكز زعماء الدين المقدسة في روما ، أو الأمكنة المقدسة التي تنسب إلى المقبولين من الزهاد والشهداء .

إن الجيل المسيحي الأول لم يشعر بضرورة زيارة مشاهد

---

(١) راجع دائرة المعارف اليهودية ، عنوان (Pilgrimage) .

المسيح والتبرك بها بالنسبة إلى المتأخرين الذين عنوا بذلك أكثر ، ولكن انتشرت هذه الزيارة من القرن الثالث المسيحي ، وقد شغف عدد كبير من المسيحيين بالبحث عن مشاهد المسيح وآثاره ، وزيارتها ، وعنوا بذلك أكثر مما عنوا بتتبع تعاليمه ووصاياه.

وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالث عشر على حساب زيارة الأرض المقدسة ، وإن لم تنقطع زيارة الأرض المقدسة بتاتاً ، وكانت روما المدينة التي تلي بيت المقدس في الأهمية ، يؤمُّها الناس للزيارة في عدد كبير ، وجمّ غفير.

إن الأسباب التي بلغت بها البابوية قمتها ، جعلت روما مركزاً للزيارة ، ولا سيما ضريحي القديس بطرس والقديس بولس قد أضفتا عليه من العظمة والجلال ما جعلها مثابة للمسيحيين الكاثوليك في العالم كله ، وازدحموا فيها ازدحاماً كبيراً ، وقد كان إقبال الزوار عظيماً على سراديب الأموات (Cata combs)[١] التي تقدّس لأجل عظام الشهداء. إن الزوار لم يتوقفوا عن زيارة روما في أي فترة من فترات التاريخ ، وقد جعلتها كثرة الكنائس والآثار التاريخية المقدسة محط أنظار الناس في كل زمان.

والقارئ يتخم بكثرة أسماء القبور والضرائح والمشاهد العامة

---

(١) تقع أشهر هذه السراديب في الفاتيكان.

في أرض فلسطين ، والمحلية المنتشرة في كل قطر أو ولاية ، أو بلد يقطنه اليهود والمسيحيون من زمن بعيد ، وصاحب مقال (الحج والزيارة) في «دائرة المعارف اليهودية» وفي «دائرة الديانات والأخلاق» يسرد أسماء ضرائح ومشاهد للصالحين والمقبولين في أقطار أوروبية وآسيوية مختلفة ، ويذكر الأيام والشهور التي تزار فيها ، وما لهذه الزيارات من آداب وتقاليد ، وإذا تأمل القارئ في مدى اهتمام اليهود والمسيحيين بهذه المشاهد ، وتقديسهم لها ، وتجشم الأسفار والمتاعب في سبيلها ، وكيف شغلتهم ، واستحوذت على مشاعرهم في كل زمان ومكان ، وكيف أثارت فيهم الغلو في التقديس والتعظيم حتى وصلوا إلى حد الشرك ، وعبادة غير الله ، عرف سر شدة إنكار النبي ﷺ على هذه العادة ، وإشفاقه من أن يتسرب ذلك إلى المسلمين ـ حملة لواء التوحيد إلى الأبد، والأمة الأخيرة ـ وحرصه الشديد على أن يبقى ضريحه ومثواه الأخير بعيداً عن كل شرك وعبادة وغلوّ، وكان ذلك هو الشغل الشاغل له في مرضه الأخير ، فقد روى البخاري عن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قالا : (لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه، فقال، وهو كذلك : «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذّر ما صنعوا) . وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ قال : «قاتل

الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»). وعن عائشة رضي الله عنها: (أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية ، فذكرت له ما رأت فيها من الصور ، فقال رسول الله ﷺ: «أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح ، أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله»[1]. وثبت عنه ﷺ أنه قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2].

وقد ضيّق الرسول ﷺ السبيل في وجه تجشّم السفر الطويل ، وشدّ الرّحل إلى المشاهد والضرائح ، والأمكنة المتبركة بقوله المأثور المشهور: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ، والمسجد الأقصى»[3] فوقى بذلك أمّته من الوقوع في فتنة المشاهد والآثار ، كما وقع فيها اليهود والنصارى ، والأمم الجاهلية ، وكانت فريسة الشرك والوثنية السافرة أحياناً كثيرة.

ولكن طوائف من المسلمين في القديم والحديث لم تعمل

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب الصلاة ، «باب الصلاة في البيعة».
(٢) رواه مالك في الموطأ.
(٣) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً.

بوصيَّته التي لم ينسها في آخر عهده بالدنيا ، ولم تُلقِ لها بالاً ، وافتتنت بالمشاهد والآثار؛ وشدّ الرحل إليها من بلدان نائية ، والعكوف عليها تبرّكاً وتعبداً ، افتتاناً عظيماً ، فكان ذلك تصديقاً لقوله ، وتحقيقاً لأخباره: «لتَتَّبِعُنَّ سننَ من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع»[1] . واغتصبت هذه المشاهد والضرائح ـ ومنها ما هو مكذوب ومزور ـ حظَّ المساجد ، وحظ المسجد الحرام في بعض الأحيان ، وقد جعلها الجهَّال في كثير من الأقطار كعبة يشدّون إليها الرّحال ، ويقصدونها من نواح بعيدة ، وقد اتخذوها عيداً يعودون إليه في كل سنة ، ويجتمعون في عدد كبير ، ويقيمون الأسواق .

وقد أجاد شيخ الإسلام تقي الدين بن تيميَّة في وصف هذه الطوائف بجملته التاريخية البليغة ، «مشاهدهم معمورة ، ومساجدهم مهجورة»[2] ، والسائح في الأقطار الإسلامية يواجه هذه المشاهد والضرائح ، ومساحاتها الواسعة ، وأبنيتها

---

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قيل: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» (متفق عليه).

(٢) راجع ما قاله شيخ الإسلام في هذا الموضوع في الجزء الأول من (منهاج السنة) (ص ١٣٠ ـ ١٣١).

الضخمة ، وقبابها الرفيعة في كل بلد يمرّ به ، ويرى هنالك من أعمال شركيّة كالسجود والنذور والذبائح ، وأدعية وسؤال من صاحب الضريح ، ما يندى له جبين الإسلام.

أما الديانات الهندية ـ بما فيها من البوذية والجينيَّة والبرهمية ـ فقد كثرت فيها المشاهد والمعابد ، والأمكنة «المقدّسة» المقصودة من النواحي والأطراف كثرة فاحشة بطبيعة الحال ، وهي الأمكنة التي يرون لها شرفاً عظيماً ، وقدساً خاصاً ، ويعتقدون فيها بركة لما حدث فيها من الوقائع العظيمة ، وأكرم فيها بعض عظمائهم بالقرب أو الكلام ، أو الوصول والمعرفة ، أو تجلَّت فيها بعض آلهتهم ـ كما يزعمون ـ تجلياً خاصاً ، وكثرت فيها الأعياد الدينية ، والمواسم والأسواق التي انصبغت بصبغة الدين.

وأكثر هذه المشاهد والأمكنة المقدسة على ساحل نهر «الكنج» (Ganges) المقدس ، يجتمع فيها أهل البلاد في عدد هائل للاغتسال في النهر المقدس ، ومنها ما يجتمعون فيها سنوياً ، أو عدة مرات في السنة ، ومنها ما يجتمعون فيها بعد سنين ، كغسل Kumbh الذي يجتمعون له بعد اثني عشر عاماً ، عند ملتقى نهري «الكنج وجمنا» في برياك (Parayag)[١] ومن

---

(١) من ضواحي «الله أباد» المدينة المشهورة.

أشهرها مدينة «بنارس» في الولاية الشمالية على نهر «الكنج»، ويُعدون الاغتسال فيه كفّارة للذنوب، ومن أعظم الحسنات والقربات، ويؤثرون الموت في هذه المدينة، وتُنقل إليها جُثث الموتى من النواحي البعيدة، لتُحرق هنالك، أو تُترك في النهر على اختلاف العقائد والعادات والطوائف الهندية. ومنها بلدة «أجودهيا» التي كانت مركزاً «لراما» (Ram Chander) و«متهرا» التي لها اتصال بتاريخ «كرشنا» (Krishna) ومنها «هردوار»[١] وكلها في الولاية الشمالية الغربية، وهنالك مشاهد وشواطئ، ومعابد هامة تُعد بالعشرات في شبه القارة الهندية، تختلف فيها العادات والتقاليد باختلاف الأقاليم والمناطق، وباختلاف الطوائف التي تدين بها.

ومن أعظم المراكز المحجوج إليها عند البوذيين مدينة «كيا» (Gaya) في ولاية «بهار» التي قضى فيها مؤسس هذه الديانة المؤلَّهُ «كوتم بده» Gotam Buddha مدة طويلة، وتشرّف بالشهود أو المعرفة التي يسمونها «نيروان» Nir Van.

والأعياد والأسواق التي تُقام في هذه الأمكنة المقدسة وعلى الشواطئ، مسرح الفوضى والجنايات، ويتجلى فيها عدم النظام، وعدم النظافة لكثرة الزوار والقاصدين الذين قد يبلغ

---

(١) معناه: باب المعبود، أو باب الإله.

عددهم ـ خصوصاً في الأعياد والأسواق التي تُقام بعد مجموعة من السنين ـ إلى ملايين من النفوس؛ رغم حرص الحكومة على إقامة النظام، وقوانين الصحة، والوقاية من الأمراض، وتقترن بتقاليد جاهلية، وأعمال شركيَّة، وأساطير الآلهة والآلهات القديمة. ومن إعجاز القرآن أنه لما ذكر حج البيت الذي بناه إبراهيم، وحثّ عليه، نعى على الشرك والوثنية الزور الذي تلوثت به المناسك، وأعمال الحج والزيارة في الديانات والأمم الأخرى، فقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ﴾ [الحج: ٣٠ـ ٣١].

هذه صورة مجملة لأساليب الحج والزيارة، والرحلة الدينية في ديانات العالم الرئيسية؛ التي لا يزال لها أتباع ومؤمنون يُعدّون بالملايين، وملايين الملايين، وقد كان شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ـ رحمة الله عليه ـ عميق النظر، واسع الاطلاع، غير مجانب للصواب والإنصاف، إذ قال في كتابه «حجة الله البالغة» وهو يتكلم في موضوع الحج:

«وأصل الحج موجود في كل أمة، لا بد لهم من موضع يتبركون به، لما رأوا من ظهور آيات الله فيه، ومن قرابين

وهيئات مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها؛ لأنها تذكر المقرّبين وما كانوا فيه.

وأحقّ ما يحج إليه بيت الله، فيه آيات بيِّنات، بناه إبراهيم صلوات الله عليه ـ المشهود له بالخير على ألسنة أكثر الأمم ـ بأمر الله ووحيه؛ بعد أن كانت الأرض قفراً وعراً، إذ ليس غيره محجوج، إلا وفيه إشراك أو اختراع ما لا أصل له»[1].

ويستطيع القارئ في سهولة أن يقارن بينها وبين الحج الإسلامي، ويعرف مفارقات بينها وبين هذا الركن الرابع، ويقرأ قوله تعالى، ويحدِّث بنعمة ربِّه: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

دور الإسلام الإصلاحي في تشريع الحج:

وقام الإسلام ـ شأنه في الأركان الثلاثة الأخرى[2] ـ بدوره الإصلاحي التجديدي في الحج، وقد كان أهل الجاهلية قد أدخلوا في الحج عادات جاهلية، وأموراً ابتدعوها، ما أنزل الله بها من سلطان، واصطلحوا على أشياء، وتواضعوا عليها من الزمن القديم، فكان تحريفاً في الحج الذي شرعه الله على لسان

---

(١) حجة الله البالغة (ج١ ص ٥٩).

(٢) الصلاة ـ الزكاة ـ الصيام.

إبراهيم ، وتوارثته قبائل العرب جيلاً بعد جيل ، جنى على كثير من مقاصده وفوائده ، وكانت الحمية الجاهلية ، والنخوة القبليَّة ، وما كانت عليه قريش من التفاخر والكبرياء ، وحرصهم على التميُّز هو الباعث الأكبر على هذه الزيادات والتحريفات ، فجاء القرآن والتشريع الإسلامي بإزالة هذه البدعة والتحريفات وإبطالها ، وقد تصدى القرآن الحكيم لكل بدعة من هذه البدع ، ولكل موقف من مواقف الجاهلية الدخيلة ، فاجتثَّه ، واستأصل شأفته ، وأبدله بخير منه.

فمن ذلك أن قريشاً لم يكونوا يدخلون عرفات مع الحجيج ، بل يقفون في الحرم ، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته ، وقُطَّان بيته ، ويقولون: نحن الحُمس ، وما ذلك إلا ليتميَّزوا عن سائر الناس ، ويحافظوا على مركزهم الجاهلي ، وعلى ما كانوا يتخيلونه من سمو وامتياز ، فأبطل الله هذا الامتياز الجاهلي وأمرهم بأن يعملوا كما يعمل الناس ، ويقفوا بعرفات ، وقال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]. روى البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها: «كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمَّون الحُمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ قاله ابن كثير ، وكذا قال ابن عباس ومجاهد

وعطاء وقتادة والسُّدِّي ، وغيرهم رضوان الله عليهم ، واختاره ابن جرير ، وحكى عليه الإجماع .

ومنها: أن أهل الجاهلية كانوا قد اتخذوا الموسم سوقاً للتفاخر والمساجلة ، كما كان شأنهم في «عكاظ» و«مجنة» و«ذي المجاز» ، وكانوا ينتهزون كل فرصة للاجتماع ، وتلاقي القبائل للتطاول بالأنساب ، ومآثر الآباء ، وعدِّ المفاخر ، وكان الاجتماع في «منى» خير مكان لإرضاء العاطفة الجاهلية ، فنهى الله عن ذلك ، وأبدلهم بما هو خير منه ، وهو ذكر الله ، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم ، فيقول رجل منهم: كان أبي يُطعم ، ويحمل الحمالات ، ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ .

ومنها: أن الحج قد فقد على مر الأيام شيئاً كثيراً من قُدسه وطهره ونزاهته ، وأصبح عيداً من أعياد الجاهلية ، ومكاناً للَّهو والخصام ، فذمّ الله ذلك في القرآن ، وقال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] قال ابن كثير: قال عبد الله بن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فالجدال في الحج ـ والله أعلم ـ أن قريشاً كانت تقف عند

المشعر الحرام بالمزدلفة ، وكانوا يتجادلون ، يقول هؤلاء: نحن أصوب ، ويقول هؤلاء: نحن أصوب ، هذا فيما نرى ، والله أعلم. وعن محمد بن كعب قال: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى ، قال هؤلاء: حجُّنا أتم من حجكم ، وقال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم.

ومنها: أن العرب كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها ، فقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ [الحج: ٣٧] ، قال ابن كثير: قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن أبي حماد ، حدثنا إبراهيم بن المختار ، عن ابن جريج ، قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح ، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾.

ومنها: أن العرب كانوا إذا نوَوا الحج تحرَّجوا من دخول البيوت من الأبواب ، وكانوا يرون ذلك إثماً وتفريطاً في جنب الله ، وفي جانب الحج ، وكانوا يتسوّرون البيوت من ظهورها ما داموا محرمين ، فأبطل الله ذلك ، ونفى أن يكون من أنواع البرِّ ، وقال: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء ، قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٩] وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن البراء قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم ، لم يدخل الرجل من قِبَل بابه ، فنزلت هذه الآية.

ومنها: أن أناساً من العرب كانوا يستحيون ويتأثمون من أن يخرجوا للحج مع زاد يبلِّغهم إلى البيت ، ويتجلدون ، ويتظاهرون بالتوكل ، ويقولون: نحن ضيوف الله ، ولا نتزود ولا نتبلَّغ ، وكانوا لا يتحرجون من التسول ، والشحاذة ، والاستجداء ، ويعدُّون ذلك في سبيل الله ، فنهاهم الله عن ذلك ، وقال: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٧] ، قال ابن كثير: قال العوفي عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة ، يقولون: نحج بيت الله ولا يُطعمنا؟ فقال الله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ ﴾ ما يكفّ وجوهكم عن الناس. وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون: نحن المتوكّلون ، فأنزل الله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾.

وكذلك كانوا يتأثمون من التجارة في الموسم ، وذلك تحريم

ما أحلّ الله ، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنَّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فتأثموا أن يتَّجروا في الموسم. فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] في مواسم الحج. وعن مجاهد رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج ، يقولون: أيام ذكر ، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ومنها: أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة ، ويقولون: لا نطوف في ملابس عصينا فيها ، فكان ذلك باباً لفساد عظيم ، وتشريعاً جاهلياً ، فأنزل الله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. روى مسلم ، والنسائي ، وابن جرير ـ واللفظ له ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال والنساء ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

فقال تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية ، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة: اللباس ، وهو ما يواري السوءة ، وما سوى

ذلك من جيِّد البزّ والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وقال ابن كثير: هكذا قال مجاهد ، وعطاء ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والسدّي ، والضحَّاك ، ومالك ، عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها ، أنها نزلت في طوائف المشركين بالبيت عراة.

وقد قُرن ذلك بأمر وتنفيذ من رسول الله ﷺ ، فأرسل أبا بكر رضي الله عنه في العام التاسع ، وأمره بأن يُعلن: «لا يطوف بالبيت عريان». وقد روى البخاري بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن أبا بكر الصديق بعثه في الحجة التي أمَّره النبي ﷺ عليها قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذِّن في الناس: «لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عريان»)[1].

ومنها: أن الطوائف من أهل العرب كانت تتحرج أن تطوف بالصفا والمروة ، وكانوا يرون ذلك من أمر الجاهلية ، فأنزل الله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: ١٥٨] ، قال عروة: عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: قلت: أرأيت قول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ـ كتاب المغازي «باب حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس».

﴿ يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ ﴾ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوّف بهما ، فقالت عائشة رضي الله عنها: بئس ما قلت يا بن أختي ، إنها لو كانت على ما أوّلتها عليه ، كانت فلا جناح عليه أن يَطوَّف بهما ، ولكنها إنما أنزلت ، أن الأنصار قبل أن يُسلموا كانوا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلَّل ، وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوّف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، وقالوا: يا رسول الله إنَّا كنا نتحرّج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ ﴾ [البقرة: ١٥٨] قالت عائشة رضي الله عنها: ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما[١]. وقال البخاري رضي الله عنه: حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عاصم بن سليمان: قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة ، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ ﴾ .

وبهذه الإصلاحات البعيدة الأثر رد التشريع الإسلامي هذا الركن العظيم إلى أصله الإبراهيمي ، ووضعه الأصيل النقي البعيد

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

عن تأويل الجاهلين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين[1] .

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، إذ قال :

(اعلم أنه ﷺ بُعِث بالملة الحنيفية الإسماعيلية لإقامة عوجها ، وإزالة تحريفها ، وإشاعة نورها ، وذلك قوله تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ، ولما كان الأمر على ذلك ، وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة ، وسننها مقررة ، إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة ، فلا معنى لتغييرها وتبديلها ، بل الواجب تقريرها ؛ لأنه أطوع لنفوسهم ، وأثبت عند الاحتجاج عليهم)[2] .

* * *

---

(١) استفدنا في هذا البحث من توجيهات أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله «في سيرة النبي» المجلد الخامس.

(٢) حجة الله البالغة (ج٢ ص ٥٦).

الفهرس

* * *